# الفصل الثاني

# بارقة الأمل

# إطلالة

لقد عشنا مع الصفحات السابقات على مدى ما قبل الميلاد، وبعده الجانب المظلم فى حياة مصر وماعاناه القبط طوال الفترات السابقة من الظلم، والغبن، والإذلال، والاضطهاد، والتسخير، والتشريد، والقتل، وإلقاء البشر فى النيران بعد إضرامها أحياء، ثم نطوى هذه الصفحات بما فيها، لننظر إلى الجانب المشرق والمضئ بعد الفتح الإسلامى، وإطلاله على الدول التى افتتحت، وتطلع الأقباط نحوه بمزيد من الأمل، لأنهم رأو فيه العدل، والصدق، والمساواة، فتغيرت به وجه الحياة، فأحيا المشاعر والأحاسيس، وَبَدَّلَ الخوف أمنًا، وَأَرْجَعَ الهاربينَ الْفَارِّينَ من بيوتهم إلى أوطانهم آمنين، فَمُسِحَ الفزعُ والحزنُ من الصدور، وَتَحَوَّلَ سريعًا إلى بسمةٍ وسعادةٍ، لِيُصْبِحُوا شُركاء فى وطنٍ واحدٍ. همومهم واحدة، ومصالحهم مشتركة يحيوا جميعًا حياةً حُرَّةً مُصَانَةً من أىِّ خوفٍ، أو فزعٍ، فكان الأمنُ بعد الخوفِ.

**المَبَاحِثُ:**

- **المَبْحَثُ الأَوَّلُ:** فتح بيت المقدس على يَدَىْ عمر بن الخطاب.
- **المَبْحَثُ الثَّانِي:** فتح مصر والإسكندرية على يَدَىْ عمرو بن العاص.
- **المَبْحَثُ الثَّالِثُ:** الإِسْلاَمُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينْ.
- **المَبْحَثُ الرَّابِعُ:** الأَقْرَبُ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا.

المبحث الأول

# فتح بيت المقدس
# على يدىْ عمر بن الخطاب

فُتِحَ بيت المقدس سنة خمس عشرة من الهجرة عندما فَرَغَ أبا عبيدة بن الجراح من دمشق كتب إلى أهل إيليا يدعوهم إلى الله وإلى الإسلام، أو يبذلون الجزية، أو يأذنوا بحرب، فأبوا أن يجيبوا إلى ما دعاهم إليه، فركب إليهم فى جنوده واستخلف على دمشق سعيد بن زيد، ثم حاصر بيت المقدس وَضَيَّقَ عليهم حتى أجابوا إلى الصلح بشرط أن يقدم إليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فكتب إليه أبو عبيدة بذلك، فاستشار "عمر" الناس فى ذلك، فأشار عثمان بن عفان بأن لا يركب إليهم، ليكون أحقر لهم وأرغم لأنوفهم، وأشار عَلِي بن أبى طالب بالمسير إليهم، ليكون أَخَفَّ وَطْأَةً على المسلمين فى حصارهم بينهم، فهوى ما قال عَلِيٌّ، ولم يَهْوِ ما قال عثمان، وسار بالجيوش نحوهم، واستخلف على المدينة على بن أبى طالب، وسار العباس بن عبدالمطلب على مقدمته، ولما وصل إلى الشام تلقاه أبو عبيدة ورؤوس الأمراء، كخالد بن الوليد، ويزيد بن أبي سفيان وترجل أبو عبيدة وَتَرَجَّلَ عمر، فأشار أبو عبيدة لِيُقَبِّلَ يَدَ عمر، فَهَمَّ عمر بتقبيل رجل أبى عبيدة، فَكَفَّ أبو عبيدة، وكَفَّ عمر، ثم سار حتى صالح نصارى بيت المقدس، فبينما عمر فى الجابية إذا بكردوس من الروم بأيديهم سيوف مسللة، فسار إليهم المسلمون بالسلاح فقال عمر: إن هؤلاء قوم يستأمنون فساروا نحوهم، فإذا هم جُنْدٌ من بيت المقدس يطلبون الأمان والصلح من أمير المؤمنين حين سمعوا بقدومه، فأجابهم عمر رضي الله عنه إلى ما سألوا وكتب لهم كتاب أمان ومصالحة ودخل عمر بيت المقدس دون إراقة نقطةِ دَمٍ من الطرفين المسلمين والقبط.

## نَصُّ الْكِتَابِ، كما ذكره ابن جرير:

بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من اختلفا:

أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم وصلبانهم وسقيمها وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها و لا من حَيِّزِهَا، ولا من صليبهم، ولا من شيءٍ من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضَارُّ أَحدٌ منهم، ولا يسكن بإيليا أحدٌ من اليهود، وعلى أهل إيليا أن يُعْطُوا الجزية كما يُعْطَى أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيليا من الجزية، ومن أحب من أهل إيليا أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعدوا وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية، شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبدالرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبى سفيان. [تاريخ ابن جرير: ٢/ ٤٤٩].

ودخل عمر بن الخطاب المسجد من الباب الذى دخل منه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء، وَيُقَالُ إنه لَبَّى حين دخل بيت المقدس فصلى فيه تحية المسجد بمحراب داود، وصلى بالمسلمين فيه صلاة الغداة من الغد، فقرأ فى الأولى بسورة (ص) وسجد فيها والمسلمون معه، وفى الثانية بسورة (بنى إسرائيل، أى: الإسراء)، ثم جاء إلى الصخرة فاستدل على مكانها من كعب الأحبار، وأشار عليه كعب أن يجعل المسجد من ورائه، فقال: ضاهيت، أى: عارضت اليهودية، ثم جعل المسجد من قبلى بيت المقدس - وهو العمرى اليوم - ثم نقل التراب عن الصخرة فى طرف ردائه، ونقل المسلمون معه فى ذلك، وَسَخَّرَ أهل الأرض فى نقل بقيتها، وقد كانت الروم جعلوا الصخرة مزبلة، لأنها قبلة اليهود، ولما أزال عمر ما على الصخرة من الكناسة، استشار كَعْبًا أين يضع المسجد؛ فأشار عليه أن يجعله وراء الصخرة، فضرب فى صدره وقال: يابن أم كعب ضارعت اليهود، وأمر ببنائه فى مقدم بيت المقدس[1].

(١) البداية والنهاية لابن كثير: (٧/ ٥٤، ٥٧).

المبحث الثانى:

# فَتْحُ مِصْرَ وَالْإِسْكَنْدَرِيَّةَ عَلَى يَدَىْ عَمْرُو بْنُ الْعَاصْ

قال محمد بن إسحاق: فُتِحَتْ مصر سنة عشرين، والإسكندرية سنة خمس وعشرين، فعندما استكمل "عمر" والمسلمون فتح الشام بُعِثَ عمرو بن العاص إلى مصر، واجتمعا هو والمسلمون على باب مصر فلقيهم أبو مريم جاثليق مصر ومعه الأسقف أبو مريام فى أهل الثبات، بعثه الموقس صاحب إسكندرية لمنع بلادهم، فلما تصافوا قال عمرو بن العاص: لا تعجلوا حتى نعذر، ليبرز إلى أبو مريم وأبو مريام رَاهِبًا هذه البلاد، فبرز إليه، فقال لهما عمرو بن العاص: أنتما راهبا هذه البلدة فاسمعا، إن الله بعث محمدًا ﷺ بالحق، وأمره به، وأمرنا به محمد ﷺ، وأدى إلينا كل الذى أُمِرَ به، ثم مضى وتركنا على الواضحة، وكان مما أُمِرْنَا به الإعذار إلى الناس، فنحن ندعوكم إلى الإسلام، فمن أجابنا إليه فمثلنا، ومن لم يجبنا عرضنا عليه الجزية وبذلنا له المنعة، وَقَدْ أَعْلَمَنَا أَنَّا مُفْتَتِحُوكُمْ، وأوصانا بكم حِفْظًا لرحمنا منكم، وأن لكم إن أجبتمونا بذلك ذِمَّةَ إلى ذِمَّةٍ، ومما عهد إلينا أميرنا: استوصوا بالقبطيين خَيْرًا، لأن لهم رَحِمًا وَذِمَّةً، فقالوا: قَرَابَةً بَعِيدَةً لا يصل إليها إلا الأنبياء معروفةً شريفةً، كانت ابنة ملكنا وكانت من أهل منف، والملك فيهم، فَأَمِّنَا حتى نرجع إليك، فقال عمرو: إن مثلى لاَ يُخْدَعُ ولكن أؤجلكما ثلاثا لتنظرا، أو لتناظرا قومكما وَإِلاَّ ناجزناكم. قالا: زدنا، فزادهما يومًا، فرجعا إلى المقوقس فأبى أرطبون أن يجيبهما وأمر بمناهدتهم، فقالا لأهل مصر: أما نحن فنجتهد أن ندفع عنكم ولا نرجع إليهم، وقد بقيت أربعة أيام قاتلوا وأشار عليهم أن يُبَيِّتُوا للمسلمين، فقال الملأ منهم: ما تقاتلون فى قوم قتلوا كسرى وقيصر وغلبوهم على بلادهم، فَأَلَحَّ الأرطبون أن يُبَيِّتُوا

للمسلمين ففعلوا ولم يظفروا بشيءٍ، بل قُتِلَ منهم طائفةٌ منهم الأرطبون، وحاصر المسلمون عين شمس فى مصر فى اليوم الرابع، وارتقى الزبير عليهم سور البلد، فلما أحسوا بذلك خرجوا إلى عمرو من الباب الآخر فصالحوه، واخترق الزبير البلد حتى خرج من الباب الذى عليه عمرو فأمضوا الصلح وكتب لهم عمرو كتاب أمانٍ فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم لا يدخل عليهم شىء من ذلك، ولا ينتقص ولا يساكنهم النوبة، أى: بلاد واسعة عريضة تقطن فى جنوبى مصر، وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف وعليهم ما حق لصونهم، فإن أبى أَحَدٌ منهم أن يُجيب رُفع عنهم من الجزاء بقدرهم وذمتنا ممن أبى بريئة، وإن نقص نهرهم من غايته رُفعم عنهم بقدر ذلك ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوبة، فله مثل ما لهم وعليه ما عليهم، وَمَنْ أَبَى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، أو يخرج من سلطاننا، فدخل فى ذلك أهل مصر كلهم وقبلوا الصلح، واجتمعت الخيول بمصر وَعَمَّرُوا الفسطاط (مدينة بناها عمرو بن العاص – رضي الله عنه – بمصر، وكانت أول عاصمة لمصر الإسلامية)، وظهر أبو مريم، وأبو مريام: فكلما عَمَّرًا فى السبايا، ففعل عمرو ما أمر به أمير المؤمنين، وجمع السبايا وعرضوهم وَخَيَّرُوهُمْ، فمنهم من اختار الإسلام، ومنهم من عاد إلى دينه، وانعقد الصلح بينهم، ثم أرسل عمر جيشًا إلى الإسكندرية – وكان المقوقس صاحب إسكندرية وكان قبل ذلك يؤدى خراج بلدة مصر إلى ملك الروم، فلما حاصره عمرو بن العاص جمع أساقفته وأكابر دولته وقال لهم: إن هؤلاء العرب غلبوا كسرى وقيصر وأزالوهم عن مُلْكِهِمْ وَلاَ طَاقَةَ لنا بهم، وَالرَّأْىُ عِنْدِى أن نؤدى الجزية إليهم، ثم بعث إلى عمرو بن العاص من يقول فيه: إنى كنت أؤدى الخراج إلى مَنْ هُوَ أَبْغَضَ إِلَىَّ منكم – فارس والروم – ثم صالحه على أداء الجزية، وبعث عمرو بالفتح والأخماس إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه. (١)

(١) مختصر من المصدر السابق: (٧/ ٩٥-٩٦).

## كَلِمَةُ حَقٍّ تُقَالُ:

عِنْدَمَا نُحِلِّلُ الْمَوَاقِفَ الثلاثَةَ فى فتح بيت المقدس، ومصر، والإسكندرية، نجد أن هذه المدن فُتِحَتْ بِدُونِ حَرْبٍ، ولكنها كانت مُنَاوَشَاتٍ بَسِيطَةٍ استسلم بعدها القبط، ومنها مَا فُتِحَ بالحصار فقط، ثم تَمَّ الصلح بعد ذلك مع المسلمين، لأن من طبع القبط عدم الميل إلى العنف والقتال وإراقة الدماء، لِمَا فى قلوبهم من الرِّقَّةِ وَالرَّأْفَةِ ولين العريكة، لما بهم من المودة للمسلمين، لأن القتال ليس مشروعًا عندهم، ولا فى مِلَّتِهِمْ، كما جاء فى كتابه تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ﴾ (الحديد: ٢٧). أى: جعل الله فى قلوب هؤلاء الحنانُ والرِّقَّةُ على الخلق، لكثرة مَا وَصَّى به عيسى عليه السلام من الشفقة وهضم النفس والمحبة.[1]

ولذلك أنزل الله دستوره على المؤمنين فَرَخَّصَ لهم صلة الذين لم يعادوهم، ولم يقاتلوهم ولم يُخرجوا المؤمنين أَنْ يَبَرُّوهُمْ، ويُحسنوا إليهم، ويعدلوا معهم وهذا القدر من الموالاة غير منهي عَنْهُ، بل مأمورٌ به فى حقهم، وإذا كان الخطاب فى ذلك الشأن لمشركى مكة، فالعبرة بعموم اللفظ، لأن كل من كان على شاكلة هؤلاء، فقد وجب التعامل معهم بالبرِّ والصلةِ والعدلِ فى كل الأمور، وأما ما نسمعُ من الإشاعات وأفواه النَّاعِقِينَ أن الكنائسَ مُدَجَّجَةً بالسلاح فهذا هُوَ الافْتِرَاءُ حَقًّا، وهذا هو الْكَذِبُ الذى لا صحة فيه من قريبٍ، أو بعيدٍ، لأن الأيام والسنون التى مضت هى التى تحكم بصدق ذلك، أو كذبه.

(١) محاسن التأويل للقاسمى: (٩/ ٤٥).

## الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ

# الْإِسْلَامُ رَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينْ

بَادِئَ ذِى بِدْءٍ، وقبل أن ندخل فى سياقِ البحث، أو المقالِ، لاَبُدَّ لنا أن نفرق بين التفكير الإسلامىِّ العقلانىِّ، والفكر العشوائىِّ، والذى يدخل تحت المصلحة الشخصية، أو السياسية، حتى نصل فى النهاية إلى وَجْهِ الْحَقِّ، وذلك لاَ يَتَأَتَّى إلاَّ بالاطِّلاَعِ، والفكرِ المستنيرِ، والاستماعِ والطاعة لقولِ الحقِ، لا السمعِ والطاعةِ، بلا بصيرةٍ.

* الْفِكْرُ الْإِسْلاَمِىُّ الْعَقْلاَنِىُّ:

لابد للمرء أن يتدبر أمر نفسه ويعملِ فكره الصائب وعقله المستنير، قبل الإقدام على أَىِّ حماقةٍ تودى بالمرء إلى المجهول، أو شرٍّ مستطيرٍ لا ينفع معهُ الندم بقيةَ عُمْرِهِ، فَلَوْ عَلِمَ يَقِينًا أَنَّ زِينَةَ الحياةِ الدنيا هى إلى زوالٍ، لَبَذَّلَ وُجْهَتَهُ سريعًا لِيُصْبِحَ هَيِّنًا. لَيِّنًا يتمسكُ بالطيبِ وينبذُ الخبيثَ، لأن الله لاَ يُغَيِّرُ ما فى الصدور، إلاَّ إذا استعدت هذه الصدورِ للتغيير، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١) فالتغيير لا يتأَتَّى إلا بالاستعدادِ القلبى الذى يؤثر على الحواسِّ والخلايا العقلية التى تستجيب لكلِّ نداءٍ هَيِّنٍ ينبذ العنف ومساعديه، كَمَا قِيلَ: (لَاَ تَكُنْ لَيِّنًا فَتُعْطَوَى، وَلاَ صَلْبًا فَتُكْسَرْ، وَلَكِنْ كُنْ وَسَطًا)، كَمَا كَانَ الْإِسْلاَمُ دَائِمًا وَسَطًا، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة: ١٤٣) وجاء فى مسند الإمام أحمد من حديث عائشة ﵂ أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (مَا كَانَ الرِّفْقُ فِى شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ، وَلاَ نُزِعَ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ)[1].

وفى رواية مسلم من حديث جرير - ﵁ - أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) الحديث صحيح: جاء فى المشكاة برقم: (٤٨٥٤)، وصحيح الجامع برقم: (٥٦٥٤).

(مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الْخَيْرَ كُلَّهُ)[1].

فَمَنْ لاَ يُصْلِحَ نفسهُ بتغيير بواعثها، بعث الله إليه ما يدفعهُ إلى هذا التغيير حتى يزلزلَ كيانُه كلهُ، وَمَنْ يغفلُ عن سنن الله الكونيةِ، فإنِ سنن الله لا تغفل عنه، لأن الله يمهل للعبد ولا يهمله، وقضاء الله قد قضاه بما كتب فى اللوح المحفوظ، كما جاء فى كتابه تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ (الأحزاب: ٦) وَهَذَا مَا تَمَّ فى ثورة ٢٥ يناير ٢٠١٠م وإبعاد مبارك وحكومته عن الحكم وإخراجه من ميدان السياسة فى مصر وَزَجِهِمْ فى السجون، لما ارتكبوه من خيانة للشعب المصرى على مدى ثلاثين عامًا من الْجَوْرِ والظلم وَالتَّجْوِيع لهذا الشعبِ الصبورِ العظيم، ولما تولى محمد مرسى، ومكتب إرشاد الإخوان السلطة فى ٣٠ يونيو ٢٠١٢م لم يعتبروا بما سبق من فرعون مصر الحديث، فصالوا وجالوا واتبعوا سبيل من كان قبلهم، فَهَمَّشُوا شعب مصر، وأخونوا جميع مؤسساته حتى أصبح فى أقل من عام يعمل فى المؤسسات الحكومية نحو ١٣٠٠٠ إخوانى، فازدادت الشكوى من ذلك، ثُم الأدهى والأمر من ذلك أصبح مكتب الإرشاد يستخدم الرعب والإرهاب لكل من يعترض على رئيس الجمهورية محمد مرسى، فكثرت الاحتجاجات، وارتفعت صيحات أمهات شباب القتلى، ولم يقتصر الأمر على ذلك فقط، بل تم معاداة قضاة مصر الشرفاء ومحاولة إقصاء ٣٥٠٠ مستشار وقاض ليحل محلهم كوادر جديدة من الإخوان وغيرهم، ثم تم بعد ذلك معاداة وسائل الإعلام وإرسال الإرهابيين أمام مدينة الإنتاج الإعلامى، ومحاصرة المحكمة الدستورية، والتشنيع على قيادات الجيش والتفريط فى جزء من سيناء، والتنازل عن حلايب وشلاتين، و عدم الاهتمام بهذا الشعب، وعدم النظر إلى شكواه، فأصبحت آذان المسئولين عن الرئاسة آذانهم صَمَّاءَ عن جميع طوائف الشعب، كما يقول المثل الدارج:

(١) الحديث متفق عليه، رواه البخارى، وأبو داود، وابن ماجة من حديث جرير رضي الله عنه، ومسلم: (٢٥٩٢)، (١٦/ ١٤٥-نووى)، ومختصر مسلم برقم: (١٧٨٣)، وصحيح الجامع برقم: (٦٦٠٦).

(أُذُنٌ مِنْ طِينٍ، وَالْأُخْرَى مِنْ عَجِينٍ) ولِمَ لاَ، ألم يقل الرئيس المعزول محمد مرسى: (أَنَا جِلْدِى طَخِينٌ)، كل ذلك أدى إلى اقتلاعه من الحكم وخلعه فى مدة وجيزة جاوزت ٣٦٨ يَوْمًا فقط، يعنى عَامًا واحدًا وثلاثة أَيَّام من ٣٠ يونيو ٢٠١٢م إلى ٣ يولية ٢٠١٣م وهى أقصر مدة تولاها ملك، أو رئيس لجمهورية مصر العربية، هذا بالنسبة لسيادة السيد المعزول وسياسته داخل الدولة، أما خارج الدولة، فقد استعدى واستغنى عن ١٩٣ دولة، ما عدا أمريكا، وتركا، وقطر، وإسرائيل، ونصف غزة، أى: منظمة حماس، فهل من الممكن قطع علاقاتنا مع ١٨٨ دولة من مدن العالم؟

ولذلك فأقول: إن الرئيس المخلوع وجماعة الإخوان فى فترة حكمهم البسيطة أصبحوا بين المطرقة والسندان، بمعنى: أنهم بين إرضاء أمريكا والجناح السِّرِّى لهم فى حماس، وأهل غزة وذلك بتوفير الوقود على حساب استنفار جميع طوائف الشعب، وزيادة عناقيد الغضب فى جميع محافظات المعمورة ووضع الدسائس والمكائد بين جميع السلطات والكذب المتعمد على جميع طوائف الشعب مما أدى إلى السقوط سريعًا وعودتهم إلى ما تعودوا عليه من الحياة فى ظلمات السجون وكواليسها، لأن قائد الدفة، لم يكن قادرًا على قيادة عربة بطاطا، ولكن مكتب الإرشاد اضَّطرَّهُ لقيادة تريلاً، فأول ما امتلك دركسيون القيادة دخل فى حارة سَدٍّ، فَهَلَكَ وَهَلَكَ مَنْ مَعَهُ جَمِيعًا.

وَمَا أَصْدَقَ مَقَالَةَ:

يَا رَيِّسِ الْمَرْكِبِ يَا حَلاَوْتَكْ ... يَلِّى سِوَاقْتَكْ مِشْ عَجْبَانِى

خَلِّى سِوَاقْتَكْ عَلَى قَدَّكْ ... حَنْشُوفْ لِنَا رَيِّسْ تَانِى

وَلَمَّا كَانَ الالتفاف على السلطة والتمكين منها فى خلال عام من حكم الإخوان لم يكن لله. قال فضيلة الشيخ أبى إسحاق الحوينيّ فى مسجد ابن تيمية بكفر الشيخ بعد ٣٠/ ٦/ ٢٠١٣م: (وَلاَ يَظُنَّنَ أحدٌ منكم أننى غائبٌ عن المشهد حتى ولو لم أكن من

حُضُورِهِ فعندى كَلَامٌ كثيرٌ اقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ أن أتكلمَ فى وقتِهِ، وفى حينِهِ، وأنا أتأمل مع نفسى، وكأن الله - عَزَّ وَجَلَّ - يُعطى للمتحمسينَ مهلة سنة - (منفعتوش) - فسلبها الله منكم، لِتَتَرَبَّوْ وَتُرَاجِعُوا أنفسكم، هل حققتم العبودية لله، أم لا؟ والله لو حققتموها لمكنكم بكم، وبدون أسباب) (انتهى كلام الشيخ) فيتحاكم الرئيسان الآن الأسبق والمعزول، لأنهما لم يَعْتَبِرَا بسننِ اللهِ الكونيةِ، والتى ابْتَعَدَا عنها بالكُلِّيَةِ، فَظَلُّوا فى غَيِّهِمْ يتطاولون، فزلزل الله قلوبهم فأصبحوا فى غياهب السجون يتألمون، وفى مزابل التاريخ يُدرج أسماؤهم ويسطرون، ومن يصبح على شاكلتهم سيسحقون، إِذًا، فَلَابُدَّ للمجتمع الإنسانِي أن ينطلق نحو التغيير، وَلاَ يَتَأَتَّى ذلك إلا بثلاثةِ أشياءِ:

١- تأمينُ الغذاءِ وَالصحةِ والعيشِ الكريمِ لكل أفرادِ الشعبِ على حَدٍّ سَوَاءْ، لِيُحِسَّ المرءُ أنه يَحْيَا حياةَ الإنسانِ، لا الحيوان.

٢- نظام الحماية التى تحمى الاستقرار، وَتُدَعِّمُ بَوَاعِثَهُ، فأموال الدنيا كلها، بلا حمايةٍ وأمنٍ واستقرارٍ للأفراد كبيرها وصغيرها، صحيحها وسقيمها، سيدها وحقيرها، رئيسها وخفيرها، بدون الأمن، كَصَرْخَةٍ فِي وَادْ، أَوْ نَفْحَةٍ فِي رَمَادْ، كما روى عبدالله بن محصن الأنصارى عن أبيه مرفوعًا، أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافىً فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتَ يَوْمِهِ؛ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا). (١)

٣- العلمُ، والمقصودُ بِهِ، علمُ العقولِ وتنويرها بالسمع والطاعةِ على بصيرةٍ، لا، بَلاَ

(١) أخرجه البخارى فى (الأدب المفرد) (٣٠٠)، و(التاريخ) (٣/ ١/ ٣٧٣)، والترمذى (٢٣٤٧)، وابن ماجه (٢/ ٥٢٥) والحميدى فى (مسنده) رقم: (٤٣٩)، وابن أبى الدنيا فى (القناعة) (٢/ ٤/ ٢)، والخطيب فى (التاريخ) (٣/ ٣٦٤)، والبيهقي فى (الزهد) (١٤/ ١)، والقضاعى فى (مسنده) (٤٥/ ٢)، وأخرجه ابن حبان (٢٥٠٧)، وأبو نعيم فى (الحلية) (٥/ ٢٤٩)، والخطيب (٦/ ١٦٦)، وابن عساكر فى (التاريخ) (٢/ ٢٦٨/ ٢، ١٩/ ٢٨٠/ ١)، وصحيح الترغيب للمنذرى (٨٢٦)، والسلسلة الصحيحة برقم: (٢٣١٨)، وحسنه الشيخ الألبانى فى صحيح الجامع برقم: (٦٠٤٢).

وَعْي، ولا بصيرةٍ، ولكن بتَدَبُّر وَرَوِيَّةِ العقولِ المستنيرةِ، لاَ برَكَلِ الْعُجُولِ، فرسول الله ﷺ فى مرحلةِ الدعوةِ بمَكَةَ لَمْ يُؤْمَرَ أصحابهُ بالقتالِ وكانَ يُوصِيهِمْ بالصبر والجلدِ وَعَدَمُ الدفاعِ عن النفسِ، لأنهم فى ذلك الوقت كانوا مأمورين بالصلاة والزكاة، ومواساة الفقراء منهم، والعفو عن أعمال المشركين وجرائمهم، ولم يُؤْمَرُوا بالجهادِ آنذاك، لأنهم كانوا فى البلد الحرام التى يوجد بها أشرف بقاع الأرض على الإطلاق، وَلَمَّا تَمَّ الاعتداء على أبدانهم وأموالهم وأعراضهم وأُخْرِجُوا من ديرهم قَهْرًا، أُمِرُوا بالجهادِ وقتالِ أعدائهم حين صارت لهم المدينة دارٌ ومقامٌ، وصارت هم الأنصار منعةً، بل وقوةً على أعدائهم، كما جاء فى كتابه تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (النساء: ٧٧).

وَلِذَلِكَ فَأَقُولُ: إنه من الغباء أن يَتَشَدَّقَ الْمُتَشَدِّقُونَ، وَيَتَنَطَّعَ الْمُتَنَطِّعُونَ لِيُلَوِّحُونَ بمقولاتهم وتصريحاتهم الرَّكيلة، بأن الإسلام انتشر بالسيف، كَلاَّ وَأَلْفُ كَلاَّ، والله ما انتشر الإسلام إلا بالرحمة والصدق، فقد كانت الصحابة يذهبون ببضائعهم إلى بلاد الفرس والروم وغيرها من البلدان، وعندما يعرضون بضاعتهم عليهم كانوا يفردونها أمام من يشترون ويقولون لهم: هذه البضاعة بها عَيْبٌ فى كذا وكذا، فكانوا يقولون لهم: وما حملكم على هذا؟ فكانوا يقولون: حَمَلَنَا على هذا صِدْقَ الإسلامِ وأمانتهُ، فأصبحوا يدخلون فى دين الله أَفْوَاجا.

## مُقَابَلَةُ الإِسَاءَةِ بِالإِحْسَانْ:

عندما تتزايدُ الأفكار وَيَبْرُزُ منها سؤالاً ليقولَ: مَا حَمَلَ بَعْضَ الْكُفَّارِ عَلَى الدُخُولِ فِى الْإِسْلاَمْ؟ نقول: سِلْمِيَّةُ الْإِسْلاَم، وَفِكْرُ الصَّحَابَةِ الْمُسْتَنِيرْ، لأنهم تعلموا من فم رسول الله ﷺ ومن واقعه، مقابلةُ الإساءةِ بالإحسانِ، ومقابلةُ العنفِ بالعفو والصفح الجميل، كما جاء فى قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

وَلِذَلِكَ عندما ذهب رسول الله ﷺ إلى أهل الطائف يدعوهم إلى الإسلام سَلَّطُوا عليه سفاءهم وعبيدهم وصبيانهم يَسُبُّونَهُ ويرضخونه بالحجارة حتى أَدْمَوُ قدميه الشريفتين، فبعث الله إليه ملك الجبال لِيُطْبِقَ عليهم الأخشبين، فمن سماحته، ولين جانبه، ومقابلته للإساءة بالإحسان عفا عنهم وقال: أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئًا، كما جاء فى الصحيحين من حديث عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت لرسول الله ﷺ: (هل أتى عليك يوم أشد عليك من يوم أحد؟ قال: ما لقيت من قومك كان أشد منه يوم العقبة، إذ عرضت نفسى على ابن عبد يا ليل ابن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام فنادانى فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردا عليك، وقد بعث لك ملك الجبال فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثم قال: يا محمد قد بعثنى إليك ربك لتأمرنى بما شئت، إن شئت نطبق عليهم الأخشبين) فقال رسول الله ﷺ: (أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئًا)[1].

وقد صدقت نبوءة رسول الله ﷺ وقد خرج من أظهر المشركين من يؤمن بالله ورسوله، ومن أبلى مع المسلمين بلاءً حسنًا فى قتال المشركين والدفاع عن الإسلام والمسلمين ومن أمثال ذلك: (خالد) بن الوليد بن المغيرة، وكان أشد عداءً للإسلام والمسلمين وقد حارب مع الكفار ضد المسلمين فى غزوة أحد وكان سببًا فى هزيمة المسلمين فى بادئ الأمر، لأنه كان داهيةً فى الحروب، وأسلم خالد وكان على خيل رسول الله ﷺ يوم الحديبية فى ذى القعدة سنة ست، وخيبر بعدها فى المحرم وصفر سنة سبع، وكانت هجرته مع عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة، فلما رآهم رسول الله ﷺ قال: رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها، ولم يزل من حين أسلم يوليه رسول الله ﷺ أعنة الخيل فيكون

(١) رواه البخارى فى كتاب بدء الخلق: (٣٢٣١)، ومسلم فى كتاب الجهاد والسير: (١٧٩٥).

فى مقدمتها فى محاربة العرب، وشهد مع رسول الله ﷺ فتح مكة، فأبلى فيها، وبعثه رسول الله ﷺ إلى الْعُزَّى وكان بيتًا عظيمًا لقريش وكنانة ومضر تُبَجِّلَهُ، فهدمها، وجعل يقولُ:

يَا عُزَّ كُفْرانَكِ الْيَوْمَ لاَ سُبْحَانَكَ ⁂ إِنِّـى رَأَيْـتُ اللهَ قَـدْ أَهَـانَـكِ

وَأَمَّرَهُ أبو بكر الصدِّيق على الجيوش، ففتح الله عليه اليمامة وغيرها، وقتل على يده أكثر أَهْلُ الرِّدَّةِ مُسَيْلِمَةَ، ومالك بن نُوَيْرَةَ: ثم افتتح دمشق، وكان يُقَالُ له: سيف الله، وَلَمَّا ذكر خالد فى مجلس رسول الله ﷺ قال عنه: (نِعْمَ عَبْدُاللهِ وَأَخُو الْعشِيرَةِ وَسَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ سَلَّهُ عَلَى الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ) واشتكى عبدالرحمن بن عوف خالد بن الوليد للنبى ﷺ، فقال: يا خالد، لِمَ تُؤْذِى رجلاً من أهل بدر، لو أنفقت مثل أحد ذهب لم تدرك عمله؟ فقال: يا رسول الله، إنهم يقعون فِيَّ فأرد عليهم، فقال: (لاَ تُؤْذُوا خالِدًا فَإِنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ صَبَّهُ اللهُ عَلَى الْكُفَّارِ).

وَلَمَّا حضرت خالد بن الوليد الوفاة قال: لقد شهدت مائة زحفٍ أو زهاءها وما فى جسدى موضع شبر إلا وفيه ضربة، أو طعنة، أو رمية، ثم هأنذا أموت على فراشى كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء.(١)

وَأَمَّا عكرمة بن أبى جهل، كان شديد العداوة لرسول الله ﷺ فى الجاهلية هو وأبوه، وكان فارسًا مشهورًا هرب حين الفتح، فلحق باليمن، ولحقت به امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام، فأتت به النبى ﷺ، فلما رَآهُ قَالَ: مرحبا بالراكب المهاجر، فأسلم، وذلك سنة ثمان بعد الفتح، وَحَسُنَ إِسْلاَمُهُ، وقال لأصحابه: إِنَّ عِكْرِمَةَ يَأْتِيكُمْ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَلاَ تَسُبُّوا أَبَاهُ، فَإِنَّ سَبَّ الـمَيِّتِ يُؤْذِى الْحَىَّ.

وَلَـمَّا أسلم عكرمة شكا قولهم (عكرمة بن أبى جهل)، فنهاهم رسول الله ﷺ أن يقولوا عكرمة بن أبى جهل، وقال: لاَ تُؤْذُوا الأَحْيَاءَ بِسَبَبِ الأَمْوَاتِ.

---

(١) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبدالبر برقم (٦٢١).

وَكَانَ عكرمة مجتهدًا فى قتال المشركين مع المسلمين استعمله رسول الله ﷺ عام حَجَّ على هوزان يصدقها، أى: يجمع صدقاتها، ووجهه أبو بكر إلى عمان، وكانوا ارتدوا، فظهر عليهم، ثم وجهه أبو بكر إلى اليمن، وولى حذيفة القلعانى، ثم لزم عكرمة الشام مجاهدًا حتى قتل يوم اليرموك فى خلافة عمر رضي الله عنه. هذا قول ابن إسحاق.

وَعِنْدَمَا أسلم عكرمة قال: يا رسول الله علمنى خير شىء تعلمه حتى أقوله، فقال له النبي ﷺ: شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، فقال عكرمة: أنا أشهد بهذا، وأشهد بذلك من حضرنى، وأسألك يا رسول الله أن تستغفر لى، فاستغفر له رسول الله ﷺ، فقال عكرمة، والله لا أدع نفقة كنت أنفقها فى صَدٍّ عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها فى سبيل الله، ولا قتالاً قاتلته إلا قاتلت ضعفه، وأشهدك يا رسول الله، ثم اجْتَهَدَ فى العبادةِ حتى قُتِلَ زمن عمر رضي الله عنه بالشام، واستشهد الحارث بن هشام، وعكرمة بن أبى جهل، وسهيل بن عمرو، وأتوا بماءٍ وهم صرعى، فتدافعوه، كلما دفع إلى رجل منهم قال: اسْقِ فلانًا حتى ماتوا ولم يشربوه. قال: طلب عكرمة الماء، فنظر إلى سهيل ينظر إليه، فقال: ادفعه إليه، فنظر سهيل إلى الحارث ينظر إليه، فقال: ادفعه إليه، فلم يصل إليه حتى ماتو، ولما كان يوم اليرموك نزل فترجل فقاتل قتالاً شديدًا، فَقُتِلَ رحمة الله عليه، فَوُجِدَ به بِضْعٌ وَسَبْعُونَ مِنْ بَيْنَ طَعْنَةٍ وَضَرْبَةٍ وَرَمْيَةٍ.(١)

وَمِنْ فِقْهِ الصَّحَابَةِ أنهم تعلموا من فم رسول الله ﷺ حُرْمَةَ دَمِ الْمُسْلِمِ، فقد رُوِىَ أَنَّ رَجُلاً قال لحذيفة رضي الله عنه: إِذَا اقْتَتَلَ الْمُسْلِمُونَ فَمَا تَأْمُرَنِى؟ قَالَ: (انْظُرْ أَقْصَى بَيْتٍ فِى دَارِكَ فَلِجْ (أَىْ: ادْخُلْ فِيهِ)، فَإِنْ دَخَلَ عَلَيْكَ، فَقُلْ: هَابُوْ بِذَنْبِى وَذَنْبِكَ)(٢).

وعن أبى ذر - رضي الله عنه - أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (كَيْفَ أَنْتَ يَا أَبَا ذَرٍّ وَمَوْتًا يُصِيبُ النَّاسَ حَتَّى يُقَوَّمَ الْبَيْتَ بِالْوَصِيفِ؟) (يَعْنِى الْقَبْرَ) قُلْتُ: مَا خَارَ اللهُ لِى وَرَسُولُهُ (أَوْ قَالَ: اللهُ

(١) المصدر السابق برقم: (١٨٥٩).

(٢) رواه الدانى فى (السنن الواردة فى الفتن) (١/ ٣٤٥).

وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ) قَالَ: (تَصَبَّرْ) قَالَ: (كَيْفَ أَنْتَ وَجُوعًا يُصِيبُ النَّاسَ حَتَّى تَأْتِي مَسْجِدَكَ فَلاَ تَسْتَطِيعَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى فِرَاشِكَ، وَلاَ تَسْتَطِيعَ أَنْ تَقُومَ مِنْ فِرَاشِكَ إِلَى مَسْجِدِكَ؟) قَالَ، قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ (أَوْ مَا خَارَ اللهُ لِي وَرَسُولُهُ) قَالَ: (عَلَيْكَ بِالْعِفَّةِ)، ثُمَّ قَالَ: (كَيْفَ أَنْتَ وَقَتْلاً يُصِيبُ النَّاسَ حَتَّى تُغْرِقُ حِجَارَةَ الزَّيْتِ بِالدَّمِ؟) قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَفَلاَ آخُذُ بِسَيْفِي فَأَضْرِبَ بِهِ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ؟ قَالَ: (إِنْ خَشِيتَ أَنْ يَبْهَرَكَ شُعَاعُ السَّيْفِ، فَأَلْقِ طَرْفَ رِدَائِكَ عَلَى وَجْهِكَ فَيَبُوءَ بِإِثْمِهِ وَإِثْمِكَ، فَيَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ).[1]

وَالْمَقْصُودُ بكلمة: (حجارة الزيت)، أى: موضع بالمدينة فى الحرة سُمِيَ بها لسواد الحجارة، كأنها طُلِيَتْ بالزيت، أى: الدم يعلو حجارة الزيت ويسترها لكثرة، وهذا إشارة إلى وقعة الحرَّة التى كانت زمن يزيد، وقوله ﷺ: (بمن أنت منه) أى: بأهلك وعشيرتك، وقوله ﷺ: (إن خشيت أن يبهرك شعاع السيف) أى: إن غلبك ضوء السيف وبريقه، فَغَطِّ وجهك حتى يقتلك.[2]

وَرُوِىَ أَيْضًا من حديث عُدَيْسَةُ بِنْتُ أُهْبَانَ، قَالَتْ: لَمَّا جَاءَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ هَا هُنَا، الْبَصْرَةَ، دَخَلَ عَلَى أَبِي، فَقَالَ: يَا أَبَا مُسْلِمٍ! أَلاَ تُعِينُنِي عَلَى هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَدَعَا جَارِيَةً لَهُ، فَقَالَ: يَا جَارِيَةُ! أَخْرِجِي سَيْفِي. قَالَ: فَأَخْرَجَتْهُ، فَسَلَّ مِنْهُ قَدْرَ شِبْرٍ، فَإِذَا هُوَ خَشَبٌ، فَقَالَ: إِنَّ خَلِيلِي وَابْنَ عَمِّكَ ﷺ عَهِدَ إِلَيَّ، إِذَا كَانَتْ الْفِتْنَةُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، فَأَتَّخِذُ سَيْفًا مِنْ خَشَبٍ، فَإِنْ شِئْتَ خَرَجْتُ مَعَكَ، قَالَ: لاَ حَاجَةَ لِي فِيكَ، وَلاَ فِي سَيْفِكَ.[3]

وَالْمُرَادُ باتخاذ السيف من الخشب، أى: الامتناع عن القتال.[4]

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجة برقم: (٣٩٥٨)، وصححه الألبانى فى الإرواء برقم (٢٤٥١).

(٢) سنن ابن ماجه: (٢/ ١٣٠٨) تعليق. محمد فؤاد عبدالباقى.

(٣) صحيح: رواه ابن ماجه برقم (٣٩٦٠)، وأخرجه الترمذى برقم: (٢٢٠٣) (٤/ ٤٩٠)، وقال: (حسن غريب)، وصححه الألبانى فى (صحيح الترمذى) (٢/ ٢٤١).

(٤) تحفة الأحوى بشرح سنن الترمذى: (٦/ ٤٤٦).

وَلِذَلِكَ عندما رأى عثمان بن عفان - رضي الله عنه - إصرار المتمردين على قتله، حَذَّرَهُمْ من ذلك، ومن مَغَبَّتِهِ، فَاطَّلَعَ عليهم من كُوَّةٍ، أى: ثُقْبٌ فى الحائط، وقال لهم: أيها الناس، لا تقتلونى واستعتبونى، فوالله لئن قتلتمونى لا تقاتلوا جميعًا أبدًا، ولا تجاهدوا عَدُوًّا أبدا، لتختلفنَّ حتى تصيروا هكذا، وَشَبَّكَ بين أصابعه. (١)

وفى رواية أنه قال: أيها الناس لا تقتلونى فإنى والٍ وأخ مسلم، فَوَاللهِ إنْ أَرَدْتُ إلاَّ الإصلاحَ ما استطعتُ، أصبتُ، أو أخطأتُ، وإنكم إن تقتلونى لاَ تُصَلُّوا جميعًا أبدًا، ولا تغزُوا جميعًا أبدًا، وَلاَ يُقَسَّمُ فَيْؤُكُمْ بَيْنَكُمْ (٢).

وقد تحققَ مَا حَذَّرَ مِنْهُ، فبعد قتله وقع كل ما قاله - رضي الله عنه - وفى ذلك يقولُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: فَوَاللهِ إنْ صَلَّى الْقَوْمُ جَمِيعًا إنَّ قُلُوبَهُمْ لَمُخْتَلِفَةٌ (٣).

ولما اجتمعت الصحابة للدفاع عنه - رضي الله عنه - رفض القتال، وقال: لاَ حَاجَةَ لِى فِى ذَلِكَ كُفُّوا، وقال: إن قتلتم رجلاً واحدًا، فكأنما قتلتم الناس جميعًا، قال تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة: ٣٢).

## الأسباب التى دعت عثمان إلى منع الصحابة من القتال:

يظهر للباحثين من خلال روايات الفتنة أن هناك أسباباً خمسة هى:

١- العمل بوصية رسول الله ﷺ التى سَارَّهُ بِهَا، وَبَيَّنَهَا عثمان - رضي الله عنه - يَوْمُ الدَّارِ، وأنها عَهْدٌ عَهِدَ بِهِ إِلَيْهِ وَأَنَّهُ صَابِرٌ نَفْسَهُ عَلَيْهِ.

٢- ما جاء فى قوله: لن أكون أول من خلف رسول الله ﷺ فى أمته بسفك دماء المسلمين.

٣- عِلْمَهُ بِأَنَّ الْبُغَاةَ لاَ يُرِيدُونَ غَيْرَهُ، فَكَرِهَ أن يَتَوَقَّى بالمؤمنين، وَأَحَبَّ أن يقيهم نفسه.

(١) الطبقات الكبرى: (٣/ ٧١) ص: ١٧١، وإسناده صحيح.

(٢) المصدر السابق: (٣/ ٦٧-٦٨)؛ وفتنة مقتل عثمان رضي الله عنه: (١/ ١٥٦).

(٣) عثمان بن عفان شخصيته وعصره على محمد محمد الصلابى (ص: ٤١٤-٤١٥).

٤- عِلْمَهُ بأن هذه الفتنة فيها قَتْلَهُ، وذلك فيما أخبرهُ بها رسول الله ﷺ عند تبشيره إياه بالجنة على بَلْوَى تُصيبُهُ، وأنه سيقتل مصطبرًا بالحق معطيه، وَالدَّلاَلاَتُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَوَانَهَا قَدْ حَانَ، وأكد ذلك تلك الرؤيا التى رآها ليلة قتله، فقد رأى رسول الله ﷺ، وقال لهُ أَفْطِرْ عندنا القابلة، ففهم - رضي الله عنه - أن موعد الاستشهاد قد قرب.

٥- الْعَمَلُ بمشورةِ ابْنِ سَلاَم - رضي الله عنه - له إذ قال: الْكَفَّ. الْكَفَّ، فإنه أبلغ لك فى الحجة، أى: امتنع عن مقاتلتهم. (١)، وتحقيق إخبار النبى ﷺ، بأن عثمان - رضي الله عنه - سوف يقتل وذلك فيما رواه عبدالله بن حوالة - رضي الله عنه - عن النبى ﷺ أنه قال: (مَنْ نَجَا مِنْ ثَلاَثٍ فَقَدْ نَجَا - ثَلاَثُ مَرَّاتٍ - مَوْتِى وَالدَّجَّالُ وَقَتْلُ خَلِيفَةٍ، مُصْطَبِرٌ بِالْحَقِّ مُعْطِيهِ)(٢).

وَفِيمَا تَقَدَّمَ يتبين هدوءه فى التفكير - رضي الله عنه -، وأن شدة البلوى لم تحل بينه وبين التفكير الصحيح، والرأى السليم، فقد تضافرت الأسباب لتحديد هذا الموقف المسالم فى قتال الخارجين عليه، ولا شك أنه - رضي الله عنه - كان على الحق فى مواقفه التى اتخذها، لما صحّ عن النبى ﷺ أنه أشار إلى وقوع هذه الفتنة، وشهد لعثمان وأصحابه أنهم على الحق.

قال ابن تيمية - رحمه الله -: ومن المعلوم بالتواتر أن عثمان كان من أَكَفِّ الناس عَنِ الدِّمَاءِ، وَأَصْبَرَ النَّاسِ عَنْ مَنْ نَالَ مِنْ عِرْضِهِ، وَعَلَى مَنْ سَعَى فِى دَمِهِ، فحاصروهُ وَسَعَوْا فى قتله، وقد عرف إرادتهم لقتله، وقد جاء المسلمون ينصرونه، ويشيرون عليه بقتالهم، وهو يأمر الناس بالكف عن القتال، ويأمر من يطيعه أَلاَّ يقاتلهم ....، وَقِيلَ لَهُ: تذهبُ إلى مَكَّةَ، فقال: لا أكون ممن أُلْحِدَ فى الحرم، فقيل له: تذهب إلى الشام، فقال: لا أفارقُ دَارَ هجرتِى، فَقِيلَ لهُ: فقاتلهم، فقال: لا أكون أول من خلف محمدًا أمته بالسيف، فكان صبر عثمان حتى قُتِلَ من أعظم فضائله عند المسلمين (٣).

(١) الطبقات الكبرى: (٣/ ٧١) بإسناد حسن.

(٢) مسند الإمام: (٤/ ٤١٩) (٥/ ٣٤٦) تحقيق الشيخ. أحمد شاكر.

(٣) المصدر السابق ص: (٤١٩-٤٢٠) مأخوذ من منهاج السنة لابن تيمية: (٣/ ٢٠٢-٢٠٣).

وَمِنْ قَبْلِه، عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عندما طعنه أبو لؤلؤة المجوسيّ غلام المنيرة بن شعبة، وَصَلَّى بالناس يومئذٍ عبدالرحمن بن عوف صلاةً خفيفةً، فَلَمَّا انصرفوا، قال عمر: يا ابن عباس، انظر من قتلنى؟ فجال ساعةً، ثم جاء فقال: غلام المغيرة، قال: قاتلهُ اللهُ لقد أمرت به معروفًا، ولم يقل ائتونى به، ثم أريقُوا دَمَهَ فِى صَحْنِ المسجدِ، بل قال: الحمدلله الذى لم يجعل مَنِيَّتِى بِيَدِ رَجُلٍ يَدَّعِى الإسلام!

ولما قال عبدالله: إن شئت، فعلت - أى: إن شئت قَتَلْنَا، قال: كذبت - أى: أخطأت، بعدما تكلموا بلسانكم، وَصَلُّوا قبلتكم، وَحَجُّوا حِجَّكُمْ! هَذَا فِقْهُ صحابة رسول الله ﷺ حتى مع إراقة دمائهم، لأنهم نبذوا إراقة الدماء وَلَوْ أُرِيقَ دماءهم، ونبذوا الفتنة والفرقة والاختلاف، فقد أخرج أو يعلى والبيهقى والطبرانى من حديث عامر الشَّعبىِّ - أنه قال: لَمَّا قَاتَلَ مَرْوَانُ الضَّحَّاكَ بْنَ قَيْسٍ أَرْسَلَ إِلَى أَيْمَنَ بْنَ خُرَيْمٍ الْأَسَدِىِّ، فَقَالَ: (إِنَّا نُحِبُّ أَنْ تُقَاتِلَ مَعَنَا) فَقَالَ: (إِنَّ أَبِى وَعَمِّى شَهِدَا بَدْرًا، فَعَهِدَ إِلَىَّ أَنْ لاَ أُقَاتِلَ أَحَدًا يَشْهَدُ أَنْ لاَإِلَهَ إِلاَّ اللهُ، فَإِنْ جِئْتَنِى بِبَرَاءَةٍ مِنَ النَّارِ قَاتَلْتُ مَعَكَ!) فَقَالَ: (اذْهَبْ) وَوَقَعَ فِيهِ، وَسَبَّهُ، فَأَنْشَأَ أَيْمَنُ يَقُولُ:

وَلَسْتُ مُقَاتِلاً رَجُلاً يُصَلِّى ... عَلَى سُلْطَانِ آخَرَ مِنْ قُرَيْشِ
لَهُ سُلْطَانُهُ وَعَلَىَّ إِثْمِى ... مَعَاذَ اللهِ مِنْ جَهْلٍ وَطَيْشِ
أَأُقَاتِلُ مُسْلِمًا فِى غَيْرِ شَىْءٍ؟ ... فَلَيْسَ بِنَا فِعِى مَا عِشْتُ عَيْشِ [1]

وَفِى قِصَّةِ ابْنَىْ آدَمَ إشارةً واضحةً تشير إلى مذهب (هابيل) لعدم استخدام العنف مع أخيهِ والدفاع عن نفسهِ، مَعَ أَنَّهُ أَشَدَ قُوَّةً مِنْ أَخِيهِ (قابيل)، ولكن منعهُ الْوَرَعَ أَنْ يَمُدَّ يَدَهُ على أخيه ليقتلهُ، لأنه الرجلُ الصالحُ الذى تَقَبَّلَ الله قربانهُ لتقواهُ، وَمَعَ تَوَعُّدِ أخيهِ

(١) أخرجه أبو يعلى فى (مسنده): (٢/ ٤٤٥)، والطبرانى فى (الكبير): (١/ ٢٩٠) برقم: (٨٥١)، والبيهقى فى (السنن): (٨/ ١٩٣).

بالقتلِ، بلا ذنبٍ ولا خطيئةٍ، إلاَّ حِقْدَهُ الأَعْمَى جعلهُ يقتلُ أخاهُ، حتى لاَ يُصْبِحَ هُوَ وأخيهِ فى الخطيئةِ سَوَاءْ، كما جاء فى كتابه تعالى: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ (المائدة: ٢٧-٣١) وجاء فى الحديث المتفق عليه من حديث عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: (لاَ تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلاَّ كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلَ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ) (١).

ثُمَّ يَسْأَلُ سَائِلٌ فَيَقُولُ: إذا كانت رسالةُ الأنبياءِ بُعِثَتْ لِلتَّحَرُّرِ مِنَ الطُّغْيَانِ الدَّاخِلِىِّ، ونشرِ السلامِ بين بنى البشرِ، فكيف نفهمُ نصوصًا من القرآن تَحُضُّ على القتلِ؟ والإجابةُ على ذلكَ، أننا سنذكر بعون الله تعالى: ثلاثة مشاهد من كتابه تعالى:

الْمَشْهَدُ الْأَوَّلُ: فى قوله تعالى: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾ (البقرة: ١٩١).

وَالْمَشْهَدُ هُنَا هُوَ حَثُّ الْهِمَمِ وَإِحْيَاؤُهَا على إرجاعِ الحقِ المغتصبِ لأهلهِ، أى: رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، وإخراج المعتدى من أرضهم التى أخرجوهم منها، أى: مكة التى كانت أَحَبَّ بلاد الله إلى رسول الله ﷺ وصحابته لأن رسول الله ﷺ حِينَ خَرَجَ مِنْهَا خَرَجَ بَاكِيًا حَزِينًا قَائِلاً: (وَاللهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللهِ إِلَىَّ، وَلَوْلاَ أَنِّى

(١) البخارى: (٣٣٣٥)، ومسلم: (١٦٧٧).

أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ)[1]

وَهَذَا هُوَ الْقَصَاصُ الْعَادِلُ، وَلَوْ عَلَى سَبِيلِ الْقِتَالِ وَالْمُنَادَاةِ بِهِ فِي حَقِّ الْأَعْدَاءِ الَّذِينَ لَا هَمَّ لَهُمْ إِلَّا قِتَالَ الْإِسْلَامِ وَأَهْلَهُ.

الْمَشْهَدُ الثَّانِي: جاء فى سورة التوبة، حيث قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ (التوبة: ١٤) فالمشهد هنا وقبل أن نشير إلى الآية التى بين أيدينا الآن ومن خلالها يتضح المقال، لَابُدَّ وأن نقرأ الآية التى تسبقها والتى تقول: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (التوبة: ١٣) أى: هؤلاء الطَّاعِنِينَ فى دين الرحمن، وَالْمُنَاصِرِينَ لدين الشيطان، والذين أخرجوا رسول الله من وطنه، وَسَعَوْا فى ذلك بكل ما أَمكنهم، ثم نقضوا العهد وعاونوا قريش، وهم معاهدوا - بنى بكر - حلفاءهم على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ، وقاتلوا معهم، فطلب الله قتالهم لنقضهم العهود والمواثيق، ومحاولة إخراج رسول الله ﷺ والمسلمين من أوطانهم عُنْوَةً وَإِجْبَارِهِمْ عَلَى ذَلِكَ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ (الأنفال: ٣٠) ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ (الإسراء: ٧٦) ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ (الممتحنة: ١).

وَأَمَّا الْمَشْهَدُ الثَّالِثُ: وهو دعوة الأعراب إلى الجهاد وعدم تخلفهم عنه، وعدم قبول أعذارهم، لأنهم يعتذرون بغير عُذْرٍ وَاضِحٍ جَلِيٍّ، لأن رسول الله ﷺ يدعوهم ومن معه من الخلفاء الراشدين لمجاهدة فارس والروم، وَمَنْ نَهَجَ نَهْجَهُمْ، وَنَحَا نَحْوَهُمْ، وَحَذَا

(١) الحديث صحيح: رواه الإمام أحمد فى مسنده، والترمذى، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم من حديث عبدالله بن عدى بن الحمراء، وجاء فى المشكاة برقم: (٢٧٢٥)، وجاء فى صحيح الجامع برقم: (٧٠٨٩-٢٤١٨).

حَذْوَهُمْ، فطلب الجهاد منهم، وأمر بقتالهم، إما للدخول فى الإسلام، وإما لدفع الجزية، فإذا امتثل الأعراب لِدَاعِىَ الله والجهد فى سبيله، حَصَلُوا على الثوابِ الجزيلِ فى يوم طويلٍ مَدَاهُ، وإن أعرضوا عن أمر الله عذبهم الله عذابًا أليمًا موجعًا يوم القيامة، كما قالَ تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الفتح: ١٦).

فَأَيْنَ الْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَنَطِّعُونَ مِنْ قَوْلِهِمْ: إن الإسلام انتشر بالسيف، فاعدلوا عن ذلك، لِأَنَّ الله سَيَكْشِفُ عَوَارَكُمْ، وَيُخْزِى قُلُوبَكُمْ، وَيُمَزِّقُ أَعْضَاءَكُمْ، وَيَحْرِقُ أَبْدَانَكُمْ فى نار قَعْرُهَا بعيد، وَحَرُّهَا شديد، وَمَقَامِعُهَا من حديد، أَمَّا دِمَاءُ الْمُسْلِمِينَ، فَهِىَ مُحَرَّمَةٌ بِالْإِجْمَاعِ، وليس دماء المسلمين فقط، ولكن دماء المسلمين وغير المسلمين، لأن الله تعالى لما قال: ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (المائدة: ٣٢) لم يقل رب العزة تبارك وتعالى، مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُسْلِمَةً، أى: اللَّفْظُ هُنَا عَلَى الْعُمُومِ لِذَا حَرَّمَ الْإِسْلَامُ القتل على المسلمينَ وغير المسلمينَ، إلا إذا ادَّعَتِ المصلحة الراجحة لذلك، وأعنى المصلحة الراجحة، أى: مصلحة الوطن والدفاع عنه، وذلك لا يتم إلا بأولى الأمر أصحاب السلطة والعلماء الربانيين، أما عن المصلحة الشخصية والانتقام، فندع الأمر لقضائنا العادل والقصاص من الظالم والمتعدى، حتى نبتعدُ عن حياةِ الغابِ، وَنَسُدُّ مَسالِكَ الشَّيطَانِ وطرقهُ، فقد جاء فى الحلية لأبى نُعَيْمٍ من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: (حُرْمَةُ مَالُ الْـمُسْلِمِ كَحُرْمَةِ دَمِهِ)[1]

وَحُرِّمَ على المسلمينَ الإشارةَ بالسيوفِ فى وجوهِ بَعْضِهِمَا خَوْفًا مِنْ نَزْغِ الشيطانِ وَوَسْوَتِهِ، فقد جاء فى مسند الإمام أحمد، والبخارى، ومسلم، وغيرهما من حديث أبى بكر أن رسول الله ﷺ قال: (إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا، فَقَتَلَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ، فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِى النَّارِ) قِيلَ: يَارَسُولَ الله هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولُ؟ قَالَ: (إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا

(١) حديث حسن: غاية المرام برقم (٣٤٥)، وصحيح الجامع برقم: (٣١٤٠).

عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ)[1].

وجاء فى مسند الإمام أحمد، والنسائى، والطيالسى من حديث أبى بكرة أن رسول الله ﷺ قال: (إِذَا أَشَارَ الرَّجُلُ عَلَى أَخِيهِ بِالسِّلَاحِ فَهُمَا عَلَى جُرُفِ جَهَنَّمَ، فَإِذَا قَتَلَهُ وَقَعَا فِيهِ جَمِيعًا)[2].

وَأَمَّا الْقِتَالُ الْمُبَاحُ، فهو لجعل كلمة الله هى العليا، كما جاء فى الصحيحين من حديث أُبَيٍّ أَنَّ رسول الله ﷺ قال: (مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ)[3].

## مُحَمَّدٌ ﷺ رَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ:

لقد كان رسول الله ﷺ رَحِيمًا بالناس جميعًا مسلمهم وغير مسلمهم، لِذَا خَصَّهُ اللهُ تعالى فى كتابه العزيز بهذه الصفة فى عدة مواقع فقال: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف: ١٥٨) ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩) ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

يُخْبِرُ اللهُ تعالى أَنْ جَعَلَ مُحَمَّدًا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، أى: أرسلُه رحمةً لهم كلهم، فمن قَبِلَ الرحمة، وشكر هذه النعمة سَعِدَ فى الدنيا والآخرة، ومن رَدَّهَا وَجَحَدَهَا خَسِرَ الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾ (إبراهيم: ٢٨-٢٩)، وقال تعالى فى صفة القرآن ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ (فصلت: ٤٤) وروى مسلم عن أبى

(١) رياض الصالحين برقم: (١٠)، وصحيح الجامع برقم: (٣٨٧).

(٢) السلسلة الصحيحة برقم: (١٢٣١)، وصحيح الجامع برقم: (٣٣٨).

(٣) الحديث صحيح: جاء فى مختصر مسلم برقم: (١٠٨٨)، والمشكاة برقم: (٣٨١٤)، وصحيح الجامع برقم: (٦٤١٧).

هريرة - رضي الله عنه - أنه قال: قيل يا رسول الله: ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، قَالَ: (إِنِّى لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً) [١].

فَإِنْ قِيلَ: فَأَيُّ رَحْمَةٍ حصلتْ لمن كَفَرَ بِهِ؟ فَالْجَوَابُ: أَنَّ مَنْ تَبِعَهُ كَانَ لَهُ رَحْمَةً فى الدنيا والآخرة، وَمَنْ لَمْ يَتْبَعْهُ عُوفِىَ مِمَّا كَانَ يُبْتَلَى بِهِ سَائِرُ الأمم مِنَ الخسف والمسخ والقذف. [٢]

وَلَنَا فِى رسول الله ﷺ الأسوةُ الحسنةُ فى قبولِ اعتذارِ المعتذرِ، فكان لَا يَرُدُّ مُعْتَذِرًا، لِمَا كَانَ فِيهِ مِنْ كَرَمِ نَفْسٍ، وَحُسْنِ خُلُقٍ. ففى موقفه مع حادثة قتل ابنته زينب - رضي الله عنها - خَيْرُ دَلِيلٍ عَلَى سِعَةِ عَفْوِهِ، وَرَحْمَتِهِ، وَصَفْحِهِ الْجَمِيلِ، فعند هجرتها - رضي الله عنها - دفعها رَجُلٌ كان مُشْرِكًا وقتها، وهو هَبَّارُ بْنُ الْأَسْوَدِ، دفعها وهى حُبْلَى، فسقطت من فوق بعيرها، فأسقطت جنينها ولا زلت مريضة فى المدينة بعدها حتى لقيت ربها، فيذكر ابن حجر فى الإصابة من حديث جبير بن مطعم، عن أبيه، عن جده، أنه قال: كنت جالسًا مع رسول الله ﷺ منصرفه من الجعران، فَاطَّلَعَ هَبَّرُ بن الأسود من باب رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، هبار بن الأسود، قال: قد رأيته، فأراد رجل من القوم أن يقوم إليه، فأشار النبى ﷺ أَنِ اجْلِسْ، فَوَقَفَ هَبَّارُ، فقال: السلام عليك يا نبى الله. أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، ولقد هربت منك فى البلاد، وأردت اللحاق بالأعاجم، ثم ذكرت عائذتك، وصلتك، وصفحك عمن جهل عليك، وَكُنَّا يا نبى الله أهل شرك، فهدانا الله بك، وأنقذنا من الهلكة، فاصفح عن جهلى، وَعَمَّا كان يبلغك عنى، فَإِنِّى مُقِرٌّ بِسُوءِ فِعْلِى، مُعْتَرِفٌ بذنبى، فقال رسول الله ﷺ: قد عفوت عنك، وقد أحسن الله إليك، حيث هداك إلى الإسلام، والإسلام يجب ما قبله. [٣]

(١) أخرجه مسلم برقم: (٢٥٩٩)، وجاء فى مختصر مسلم برقم: (١٨٢٢)، وصحيح الجامع برقم: (٢٥٠١)، (٢٥٠٢) وروى فى الأدب المفرد للبخارى من حديث أبى هريرة - رضي الله عنه -.

(٢) صحيح تفسير ابن كثير: (٣/ ١٧٨).

(٣) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر برقم: (٨٩٤٩)، والاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبدالبر برقم: (٢٦٩٧).

وَمَعْنَى أَنَّ الْإِسْلَامَ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ، أى: يمحو الكفر والذنوب التى كانت قبل الإسلام، لما رواه ابن سعد فى طبقاته، من حديث الزبير، وجبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال: (الْإِسْلَامُ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ)(١).

وروى الطبرانى وغيره من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبى ﷺ بَعَثَ سَرِيَّةً فَغَنِمُوا وَفِيهِمْ رَجُلٌ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنِّى لَسْتُ مِنْهُمْ، عَشِقْتُ امْرَأَةً فَلَحِقْتُهَا فَدَعُونِى أَنْظُرْ إِلَيْهَا، ثُمَ اصْنَعُوا مَا بَدَا لَكُمْ، فَإِذَا امْرَأَةٌ طَوِيلَةٌ أَدْمَاءُ، فَقَالَ لَهَا:

أَرَأَيْتِ لَوْتَبِعْتُكُمْ فَلَحِقْتُكُمْ بِحِلْيَةٍ، أَوْ أَدْرَكْتُكُمْ بِالْخَوَانِقْ
أَمَا كَانَ حَتَّى أَنْ يَنُولَ عَاشِقٌ تَكَلَّفَ إِدْلاَجَ السُّرَى وَالْوَدَائِقْ؟

قَالَتْ: نَعَمْ فَدَيْتُكَ، قَالَ: فَقَدَّمُوهُ، فَضَرَبُوا عُنُقَهُ، فَجَاءَتِ الْمَرْأَةُ فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ، فَشَهِقَتْ شَهْقَةً، أَوْ شَهْقَتَيْنِ، ثُمَّ مَاتَتْ، فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأُخْبِرَ بِذَلِكَ، فَقَالَ: (أَمَا كَانَ فِيكُمْ رَجُلٌ رَحِيمٌ؟!)(٢).

## وَمِنْ رَحْمَتِهِ بِأَهْلِ الْكِتَابِ

أَنَّهُ ﷺ قَالَ: مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَمَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوْصَى أَيْضًا: بِعَدَمِ دُخُولِ بُيُوتِهِمْ إِلاَّ بِإِذْنِهِمْ، وَلاَ ضَرْبِ نِسَائِهِمْ، وَلاَ أَكْلِ ثِمَارِهِمْ إِلاَّ بِإِذْنِهِمْ، وإليك عزيزى القارئ بعض الأحاديث التى تحث على ذلك لتعلم علم اليقين مدى سماحة الإسلام وأهله، ولكن ما يحدث فى أيامنا هذه هو نتيجة فهم مغلوط أخذه التكفيريون من كتب سيد قطب، ومحمد قطب، ومصطفى شكرى، وأبو

(١) الحديث صحيح، جاء فى الإرواء برقم: (١٢٨٠)، وصحيح الجامع برقم: (٢٧٧٧).
(٢) الحديث صحيح: رواه الطبرانى فى حديثه النسائى (٣١٦/ ١)، وفى (السير) للنسائى أيضًا: (٢/ ٤٧/ ١-٢)، وفى المعجم الكبير (٣/ ١٤٤/ ٢)، وفى (الأوسط) (١/ ٩٢/ ١٦٨٨)، والبيهقى فى (دلائل النبوة) (٥/ ١١٧-١١٨) وابن منده فى (المعرفة) (٢/ ٨٩/ ٢)، والطبرانى فى (المعجم الكبير) (١٠/ ٦٢)، والهيثمى فى (المجمع) (٦/ ٢١٠)، والسلسلة الصحيحة للألبانى برقم: (٢٥٩٤).

الأعلى المودودى، والإسلام برئٌ من أقوالهم، وأفعالهم، وكل ما ينتسب إليهم، وإليك سماحة الإسلام فى تلك الأحاديث التى نسوقها إليك:

(١) روى أبو داود من حديث صَفْوَانِ بْنِ سُلَيْم أن رسول الله ﷺ قال: (أَلاَ مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوْ انْتَقَصَهُ حَقَّهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[١].

(٢) وروى ابن ماجه، والحاكم عن أبى هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ قَتَلَ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ لَمْ يَجِدْ رِيحَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ سَبْعِينَ عَامًا)[٢].

(٣) وروى الإمام أحمد من حديث أبى بكر - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا فِى غَيْرِ كُنْهِهِ، حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ)[٣].

(٤) وروى البخارى من حديث ابن عمرو - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يُرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا)[٤].

(٥) وروى الإمام أحمد، والنسائى من حديث أبى بكر - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهِدَةً بِغَيْرِ حِلِّهَا، حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ: أَنْ يَشُمَّ رِيحَهَا)[٥].

---

(١) الحديث صحيح: رواه أبو داود برقم: (٣٠٥٢)، وكذلك البيهقى عن صفوان ابن سليم، وصححه الألبانى فى (غاية المرام بتخريج أحاديث الحلال والحرام برقم: (٤٧١)، وروى عن عدد من أبناء الصحابة عن آبائهم، وجاء فى صحيح الجامع برقم: (٢٦٥٥-١٢٤١).

(٢) الحديث صحيح: جاء فى الترغيب للمنذرى برقم: (٣/ ٢٠٤)، وصحيح الجامع برقم: (٦٤٤٨-٢١٩٢).

(٣) الحديث صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائى، والحاكم عن أبى بكر - رضي الله عنه -، وجاء فى الترغيب (للمنذرى) برقم: (٣/ ٢٠٤)، وصحيح الجمع برقم: (٦٤٥٦).

(٤) البخارى (٣١٦٦، ٦٩١٤)، ورواه الإمام أحمد، والنسائى، وابن ماجه، عن ابن عمرو - رضي الله عنه -، وغاية المرام برقم: (٤٤٩)، وصحيح الجامع برقم: (٦٤٥٧).

(٥) الحديث صحيح: رواه النسائى برقم: (٤٧٥٠)، والترغيب للمنذرى برقم: (٣/ ٢٠٤)، والسلسلة الصحيحة للألبانى برقم: (٢٣٥٦)، وصحيح الجامع للألبانىّ أيضًا برقم: (٦٤٥٨-٢١٩٨).

(٦) وروى أبو داود من حديث الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ السُّلَمِيِّ قَالَ: نَزَلْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ خَيْبَرَ وَمَعَهُ مَنْ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ وَكَانَ صَاحِبُ خَيْبَرَ رَجُلاً مَارِدًا مُنْكَرًا، فَأَقْبَلَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَلَكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا حُمُرَنَا وَتَأْكُلُوا ثَمَرَنَا، وَتَضْرِبُوا نِسَاءَنَا؟ فَغَضِبَ - يَعْنِي النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ: (يَا ابْنَ عَوْفٍ ارْكَبْ فَرَسَكَ، ثُمَّ نَادِ أَلاَ إِنَّ الْجَنَّةَ لاَ تَحِلُّ إِلاَّ لِمُؤْمِنٍ، وَإِنِ اجْتَمَعُوا لِلصَّلاَةِ)، قَالَ: فَاجْتَمَعُوا، ثُمَّ صَلَّى بِهِمُ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ قَامَ، فَقَالَ: أَيَحْسَبُ أَحَدُكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ قَدْ يَظُنُّ أَنَّ اللهَ لَمْ يُحَرِّمْ شَيْئًا إِلاَّ مَا فِى هَذَا الْقُرْآنِ، أَلاَ وَإِنِّى وَاللهِ! قَدْ وَعَظْتُ وَأَمَرْتُ وَنَهَيْتُ عَنْ أَشْيَاءَ إِنَّهَا لَمِثْلُ الْقُرْآنِ، أَوْ أَكْثَرُ، وَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُحِلَّ لَكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتَ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ بِإِذْنٍ، وَلاَ ضَرْبَ نِسَائِهِمْ، وَلاَ أَكْلَ ثِمَارِهِمْ إِذَا أَعْطَوْكُمُ الَّذِى عَلَيْهِمْ)[1].

## خُلُقُ الرَّحْمَةِ فِى حَيَاةِ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ:

- كان صحابة رسول الله ﷺ يُحْسِنُونَ التعامل مع أهل الكتاب، لأَنَّ مِنْ حُسْنِ التَّعَامُلِ الْإِسْلاَمِيِّ، وَمَزَايَا إِسْلاَمُنَا الْحَنِيفِ إِعْطَائِهِمْ حُقُوقَهُمْ:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عمر بن الخطاب إذ جاءه رجل من أهل مصر، فقال: يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك. قال: ومالك؟ قال: أجرى عمرو بن العاص الخيل بمصر فأبلت فرس لى، فلما ترآها الناس قام محمد ابن عمرو، فقال: فرسى ورب الكعبة!، فلما دنا منى عرفته، فقلت فرسى ورب الكعبة، فقام يضربنى بالسوط! ويقول: خُذْهَا، خُذْهَا؛ وأنا ابن الأكرمين! قال فوالله، مازاد عمر على أن قال: اجلس، ثم كتب إلى عمرو: إذا جاءك كتابى هذا فأقبل وأقبل معك بابنك محمدًا. قال فدعا عمرو ابنه فقال: أحدثت حدثًا؟ أجنيت جنايةً؟ قال: لا، قال: فما بال عمر يكتب فيك! قال فقدما على عمر. قال أنس فوالله إنَّا لعند عمر بمنى إِذْ نحن بِعَمْرٍو وقد أقبل فى إزارٍ ورداءٍ،

(١) رواه أبو داود (٣٠٥٠)، وضعفه الألبانى فى (ضعيف الجامع) برقم: (٢١٨٤).

فجعل عمرُ يلتفت هل يرى ابنه! فإذا هو خلف أبيه، فقال: أينَ المصريّ؟ فقال: ها أنا ذا، قال: دونك الدِّرَّةِ اضرب ابن الأكرمين! قال: فضربه حتى أثخنه، ثم قال: أَجِلْهَا على صلعة عمرو، فوالله، ما ضربك إلا بفضل سلطانه! فقال: يا أمير المؤمنين لقد ضربت مَنْ ضربني، فقال: أما والله لو ضربته مَا حُلْنَا بينك وبينه حتى تكون أنت الذى تدعه. أَيَا عَمْرُو! متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهم أحرارًا؟ ثم التفت إلى المصرى، فقال: انصرف راشدًا، فإن رابك ريب فاكتب إِلَيَّ [1].

وَرَوَى عمر بن شَبَّةْ بإسنادٍ له. قال: قال عمرو بن العاص لرجل من تُجِيْب: يا منافق، فقال التُّجِيبِيّ: ما نافقت منذ أسلمت ولا أغسل لى رأسًا، ولا أدهنه حتى آتى عمر، فأتى عمر، فقال: يا أمير المؤمنين إن عَمْرًا نَفَّقَنِى، ولا والله ما نافقت منذ أسلمت، فكتب عمر إلى عمرو، وكان إذا غَضِبَ كتب: إلى العاصى بن العاص: أَمَّا بَعْدُ، فإن فلانا التجيبى ذكر أنك نفقته وإنى أمرته إن أقام عليك شاهدين أن يضربك أربعين، أو سبعين، فقام فقال: أنشد الله رجلاً سمع عَمْرًا نَفَّقَنِى إلا قام، فشهد، فقام عامة المسجد، فقال له حشمه، أى: خدمه ومن يغضب له: أتريد أن تضرب الأمير؟ قال وعرض عليه الأرش، أى: دِيَّةِ الْجِرَاحَاتِ، فقال: لو ملأت لى هذه الكنيسة ما قبلت، فقال له حشمه: أتريد أن تضرب الأمير؟ فقال ما أرى لعمر ها هنا طاعة، فلما وَلَّى. قال عمرو: رُدُّوهُ، فأمكنه من السَّوْطِ وجلس بين يديه، فقال: أتقدر أن تمتنع منى بسلطانك؟ قال: لا، قال: فَامْضِ لما أُمِرتَ به. قال: فإنى أدعك لله [2].

وقد كانت حُرْمَةُ المسكن مكفولةٌ ومصانةٌ فى عهد عمر بن الخطاب وعصر الخلفاء الراشدين، وأما حرية الملكية فقد كانت مكفولة ومصانة أيضًا فى عصر الخلفاء الراشدين

(١) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. على محمد عمر ص: ١١٢-١١٣، والأثر أورده ابن عبدالحكم مختصرًا فى فتوح مصر ص: ١٩٥، ومن طريق صاحب الكنز برقم: (٣٦٠١٠).

(٢) المصدر السابق، والأثر أورده ابن شبه: تاريخ المدينة: (٣/ ٨٠٨).

ضمن أبعد الحدود التى تقرها الشريعة الإسلامية فى هذا المجال، فحين اضطر عمر - رضي الله عنه - لأسباب سياسية، وحربية بإجلاء نصارى نجران، ويهود خيبر من قلب شبه الجزيرة العربية، إلى العراق والشام أمر بإعطائهم أرضًا كأرضهم فى الأماكن التى انتقلوا إليها احترامًا منه وإقرارًا لِحَقِّ الملكيةِ الفردية الذى يكفلهُ الإسلامُ لأهل الذمة مثلما يكفله للمسلمين (١).

وَحَرِصَ عُمَرُ بْنُ الخطابِ على حريةِ العقيدةِ الدينيةِ، لأن دين الإسلام لم يُكْرِهْ أحدًا من الناس على اعتناقه، بل دعا إلى التفكر والتأمل فى كون الله ومخلوقاته، وأمر أتباعه أن يجادلوا الناس بالتى هى أحسن، كما قال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة: ٢٥٦). ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ (الشورى: ٤٨). ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل: ١٢٥). ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

وَلِذَلِكَ نَجِدُ الفاروقُ عمرُ فى دولتهِ حَرِصَ على حماية الحرية الدينية، ونلاحظ أنه سار على هَدْىِ النبى ﷺ والخليفة الراشد أبى بكر فى هذا الباب، فقد أَقَرَّ أهل الكتاب على دينهم، وأخذ منهم الجزية وعقد معهم المعاهدات وحفظت معابدهم، ولم تُهْدَمْ وَتُرِكَتْ على حالها، وذلك لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ (الحج: ٤٠) وحركة الفتوحات التى قام بها الصحابة تشهد على احترام الإسلام للأديان الأخرى، وَحِرْصِ القيادة العليا على عدم إكراهِ أحدٍ فى الدخول فى الإسلام، حتى إن الفاروق نفسه جاءته ذات يوم امرأة

(١) عمر بن الخطاب شخصيته وعصره، على محمد محمد الصلابى ص: ١٤٣-١٤٤، والسياق جاء فى نظام الحكم فى عهد الراشدين لحمد الصمد ص: ١٦٥.

نصرانية عجوز كانت لها حاجة عنده، فقال لها أَسْلِمِي تَسْلَمِي؛ إن الله بعث محمدًا بالحق، فقالت: أنا عجوز كبيرة، والموت إِلَيَّ أقرب، فقضى حاجتها، ولكنه خَشِيَ أن يكون فى مسلكه هذا ما ينطوى على استغلال حاجتها لمحاولة إكراهها على الإسلام، فاستغفر الله مما فعل وقال: اللَّهُمَّ إِنِّى أَرْشَدْتُ، وَلَمْ أُكْرِهْ. (١)

وكان لعمر - رضي الله عنه - عَبْدٌ نَصْرَانِيٌّ اسمه (اشق) حَدَّثَ فقال: كنت عبدًا نَصْرَانِيًّا لعمر، فقال: أسلم حتى نستعين بك على بعض أمور المسلمين، لأنه لا ينبغى لنا أن نستعين على أمورهم بمن ليس منهم، فأبيت، فقال: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة: ٢٥٦) فَلَمَّا حضرته الوفاة اعتقنى وقال: اذهب حيث شئت (٢).

وقد كان أهل الكتاب يمارسون شعائر دينهم وطقوس عبادتهم فى معابدهم وبيوتهم، ولم يمنعهم أحد من ذلك، لأن الشريعة الإسلامية حفظت لهم حق الحرية فى الاعتقاد، وقد أورد الطبرى فى العهد الذى كتبه عمر لأهل إيليا (القدس) ونص فيه على إعطاء الأمان لأهل إيلياء على أنفسهم وأموالهم وصلبانهم وكنائسهم (٣).

وكتب والى عمر بمصر عمرو بن العاص لأهل مصر عهدا جاء فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم، وأكد ذلك العهد بقوله: على ماضى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين (٤).

وقد اتفق الفقهاء على أن لأهل الذمة لهم ممارسة شعائرهم الدينية وأنهم لاَ يُمْنَعُونَ من ذلك ما لم يظهروا، فإن أرادوا ممارسة شعائرهم إعلانًا وجهرًا كإخراجهم الصلبان

(١) معاملة غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى إدوار غالى ص: ٤١.
(٢) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى ظافر القاسمى: (١/ ٨٥).
(٣) تاريخ الطبرى: (٤/ ١٥٨).
(٤) البداية والنهاية لابن كثير: (٧/ ٩٨).

يرون منعهم فى ذلك فى أمصار المسلمين، وعدم مَنْعِهِمْ فى بُلْدَانِهِمْ وَقُرَاهُمْ [1].

يقول الشيخ العزالى عن كفالة الإسلام لحرية المعتقد إن الحرية الدينية التى كفلها الإسلام لأهل الأرض، لم يعرف لها نظير فى القارات الخمس، ولم يحدث أن انفرد دين بالسلطة، ومنح مخالفين فى الاعتقاد كل أسباب البقاء والازدهار، مثل ما صنع الإسلام، ولقد حرص الفاروق على تنفيذ قاعدة حرية الاعتقاد فى المجتمع وَخَصَّ سياسته حِيَالَ النصارى واليهود بقوله: وإنما أعطيناهم العهد على أن نخلى بينهم وبين كنائسهم يقولون فيها ما بدا لهم، وَأَنْ لاَ نُحَمِّلَهُمْ ما لا يطيقون، وإن أرادهم عدوهم بسوء قاتلنا دونهم، وعلى أن نخلى بينهم وبين أحكامهم، إلا أن يأتوا راضين بأحكامنا فنحكم بينهم، وإن غيبوا عنا لم نعترض لهم [2].

وقد ثبت عن عمر أنه كان شديد التسامح مع أهل الذمة، حيث كان يعفيهم من الجزية عندما يعجزون عن تسديدها، فقد ذكر أبو عبيد فى كتاب الأموال: أن عمر - رضي الله عنه - مَرَّ بِبَابِ قَوْمٍ وعليه سائل يسأل - شيخ كبير ضرير البصر - فضرب عضده من خلفه وقال: مِنْ أَيِّ أَهل الكتاب أَنْتَ؟ فقال: يهودى، قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن، قال: فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله، فرضخ له بشىء من المنزل، أى: أعطاه شيئًا ليس بالكثير، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال: انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته، ثم نخذله عند الهرم، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه، وقد كتب إلى عماله مُعَمِّمًا عليهم الأمر، وهذه الأفعال تدل على عدالة الإسلام وحرص الفاروق على أن تقوم الدولة على العدالة والرفق برعاياها ولو كانوا من غير المسلمين، وقد بقيت الحرية الدينية مَعْلَمًا بَارِزًا فى عصر الخلافة الراشدة، مَكْفُولَةً من قبل الدولة، ومصانةً بأحكامِ التشريعِ الرَّبَّانِيِّ [3].

(١) السلطة التنفيذية د. محمد الدهلوى: (٢/ ٧٢٥).

(٢) نظام الحكم فى عهد الخلفاء الراشدين. حمد الصمد ص: ١١٧.

(٣) عمر بن الخطاب شخصيته وعصره ص: ١٣٨-١٣٩.

وَمِنْ حُسْنِ التعاملِ أيضًا لقاء عمرو بن العاص، والبابا بنيامين.

يَقُولُ الْمُؤَرِّخُ ابن عبدالحكم: كان بالإسكندرية أسقف للقبط يقال له: أبو بنيامين، وكان هاربًا فى الصحراء بسبب الاضطهاد المذهبى الذى تعرض (٤) له الأقباط على أيدى الرومان المسيحيين، فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص إلى مصر، كتب إلى القبط يعلمهم أنه لا تكون للروم دولة، وأن ملكهم قد انقطع، ويأمرهم بتلقى عمرو فيقال: إن القبط الذين كانوا بالفرما صاروا يومئذٍ لعمرو أعوانًا [1].

وقد جاء فى رواية المؤرخ القبطى (ساويرس بن المقنع) أن سانوتيوس أحد رؤساء القبط وقتئذٍ، والذى كان يتولى إدارة شئون الكنيسة مدة اختفاء البطريق بنيامين، وقد روى لعمرو موضوع الأب المجاهد بنيامين البطرك، وأنه هارب من الروم خَوْفًا منهم، فكتب عمرو بن العاص إلى عُمَّالِ مصرٍ كتاباً يقول فيه الموضع الذى فيه بنيامين بطرك النصارى القبط له العهد والأمان والسلامة من الله، فليحضر آمنًا مطمئنًا وَيُدَبِّرُ حال بيعته وسياسة طائفته، فلما سمع القديس بنيامين هذا عاد إلى الإسكندرية بفرحٍ عظيم بعد غيبةٍ ثلاث عشرة سنة، فلما ظهر فرح الشعب وكل المدينة بمجيئه، ولما علمَ عمروَ بوصوله أمر بإحضارهِ بكرامةٍ وإعزازٍ ومحبةٍ، فلما رآهُ أكرمهُ وقال لأصحابه: إن فى جميع الكور التى ملكناه إلى الآن ما رأيتُ رجلاً يشبه هذا، وكان الأب بنيامين حسن المنظرِ جدًا، وجيد الكلام بسكونٍ ووقارٍ، ثم التفت عمرو إليه وقال له: جميع بيعتك ورجالك اضبطهم وَدَبِّرْ أحوالهم، وانصرف من عنده مُكَرَّمًا مُبَجَّلاً، وَعَلَّقَ الأستاذ الشرقاوى على هذا اللقاء فقال: وَقَرَّبَ عمرو إليه البطريق بنيامين حتى لقد أصبح من أَعَزِّ أصدقائه عليه، واطمأن العرب الفاتحون فى مصر، وخطبهم أميرهم عمرو بن العاص فى أَوَّلِ جُمْعَةٍ صلاها بجامعه بالفسطاط، فقال: ... استوصوا بمن جاوركم من القبط، فإن لكم فيهم ذِمَّةً وَصِهْرًا، فَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ، وَعِفُّوا أَبْصَارَكُمْ [2].

(١) فتوح مصر وأعوانها. لابن عبدالحكم ص ١٧٣، ١٧٤.

(٢) عمر بن الخطاب شخصيته وعصره ص: ٦٧٥، ٦٧٦.

## خُلُقُ الرَّحْمَةِ لِلْأَقْبَاطِ فِى حَيَاةِ السَّلَفِ:

لَقَدْ تَعَلَّمَ صَحَابَةُ رسول الله ﷺ الرحمة من أقوال النبى ﷺ، وأفعاله، وشمائله قولاً وعملاً، ثم عَلَّمُوا السَّلَفَ مَا تعلموهُ، فطبقوهُ على الجانب العملىِّ على أنفسهم، وعلى غيرهم من الملل والطوائف الأخرى، فقد روى مسلم من حديث أبى موسى الأشعرىِّ أن رسول الله ﷺ قال: (أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالْمُقَفَّى، وَالْحَاشِرُ، وَنَبِىُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِىُّ الرَّحْمَةِ)(١).

قال ابن القيم رحمه الله: وَأَمَّا (نَبِىُّ الرَّحْمَةِ) فهو الذى أرسله الله رحمة للعالمين، فَرَحِمَ به أهل الأرض كلهم مؤمنهم وكافرهم، أما المؤمنون فنالوا النصيب الأوفر من الرحمة، وأما الكفار، فأهل الكتاب منهم عاشوا فى ظله وتحت حبله وعهده (٢).

ولذلك قال عن نفسه ﷺ: (إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ) كما جاء فى شعب الإيمان للبيهقى، والدارمى، والحاكم من حديث أبى هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ) (٣).

أى: ما أنا إلا رحمةً أهداها الله للعالمين أجمعين مؤمنهم وكافرهم، فمن أجل ذلك تعلم السلف هذا الخلق العظيم، وكان من أثره أن ابن عمر - رضي الله عنه - كان لهُ جارٌ يهودىٌّ، فكان إذا ذبحَ الشاةَ يقول: احملوا إلى جارنا اليهودى منها، وَرُوِىَ أن الجارَ الفقيرَ يتعلقُ بالجارِ الغنىِّ يوم القيامة ويقولُ: يَارَبِّ! سَلْ هَذَا لِمَ مَنَعَنِى مَعْرُوفَهُ، وَأَغْلَقَ عَنِى بَابَهُ، فقد جاء فى الصحيحين من حديث عبدالله بن عمر - رضي الله عنه - أنهُ ذُبِحَتْ لَهُ شَاةٌ، فجعل يقول لغلام: أهديت لجارنا اليهودى، أهديت لجارنا اليهودى، فقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: (مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِى بِالْجَارِ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ)(٤).

(١) رواه مسلم: (٢٣٥٥)، وجاء فى (الروض النضير) برقم: (٤٠١، ١٠١٧)، وصحيح الجامع برقم: (١٤٧٣).

(٢) زاد المعاد لابن القيم: (١/ ٩٥).

(٣) السلسلة الصحيحة برقم: (٤٩٠)، وغاية المرام برقم: (١)، والمشكاة برقم: (٥٨٠٠) وصحيح الجامع برقم: (٢٣٤٥).

(٤) رواه البخارى فى (الأدب المفرد) (١٠١)، ومختصر مسلم (١٧٨٠)، والإرواء (٨٩١)، وصحيح الجامع برقم: (٥٦٢٨).

وَكَانَ لِلْحَسَنِ جَارٌ نَصْرَانِيٌّ، وكان له كنيف على السطح، وَقَدْ نَقَبَ ذلك فى البيت، فكان يَتَحَلَّبُ منهُ الْبَوْلُ فِى بيت الحسن، فأمر بإناء فوضع تحته، فكان يخرج ما يجتمع منه ليلاً، ومضى على ذلك عشرون سنة، ثم مرض الحسن ذات يوم فَعَادَاهُ النصرانى، أى: زاره، فرأى ذلك، فقال: منذ كم تحملون منى هذا الأذى؟ فقال الحسن: منذ عشرين سنة، فقطع النصرانى زِنَّارَهُ وَأَسْلَمَ، وَالزِّنَّارُ: حزام يشده النصرانى على وسطه. (١)

قَالَ الإمامُ الذهبىُّ: (فقد روى عن سهل بن عبدالله التسترى: أنه كان له جَارٌ ذِمِّىٌّ وكان قد انبثق من كنيفه إلى بيت دار سهل بَثْقٌ، أى: ثُقْبٌ، فكان سهل يضع كل يوم الجفنة تحت ذلك البثق فيجتمع ما يسقط فيه من كنيف المجوسى ويطرحه بالليل حيث لا يراه أحد، فمكث على هذه الحال زمانًا طويلاً إلى أن حضرت سهلا الوفاة، فاستدعى جاره المجوسى وقال له: ادخل ذلك البيت وانظر ما فيه، فدخل فرأى ذلك البثق والقذر يسقط منه فى الجفنة فقال: ما هذا الذى أرى؟ قال سهل: هذا منذ زمانٍ طويلٍ يسقط من دارك إلى هذا البيت، وأنا أتلقاه بالنهار وألقيه بالليل، ولولا أنه حضرنى أجلى وأنا أخاف أن لا تتسع أخلاق غيرى لذلك، وإلا لم أخبرك فافعل ما ترى، فقال المجوسى: أيها الشيخ أنت تعاملنى بهذه المعاملة منذ زمن طويل وأنا مُقِيمٌ على كُفْرِى؟ مُدَّيَدَكَ، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ثم مات سهل) (٢).

- وَأَمَّا آدَابُ الْحَرْبِ مَعَ الْمُحَارِبِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْكُفَّارِ: فقد أصدر محمد ﷺ دستورهُ ومواثيقهُ، لمن أَمَّرَهُمْ على جيوشِ المسلمينَ، بأن لاَ يُمَثِّلُوا بِجُثَثِ الْأَعْدَاءِ، وَلاَ يَغْدُرُوا، وَلاَ يَقْتُلُوا وَلِيدًا، فقد روى مسلم وغيره من حديث سليمان بن بريدة، عن أبيه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أَمَّرَ أَمِيرًا على جيشٍ، أو سريةٍ أَوْصَاهُ فِى خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى الله وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: (اغْزُوا بِاسْمِ الله فِى سَبِيلِ الله، قَاتِلُوا مِنْ كَفَرَ

(١) رياض النعيم. أبو عبدالرحمن سلطان بن على الحسنى (ص: ٦٢٨).

(٢) المصدر السابق (ص: ٦٢٨)، والأثر ورد فى الكبائر للذهبى (ص: ٢٠٧).

بِاللهِ، اغْزُوا وَلاَ تَغْلُوا، وَلاَ تَغْدُرُوا، وَلاَ تَمْثُلُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلاَثِ خِصَالٍ: أَوْ خِلاَلٍ - فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلاَمِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ فَلاَ تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ أَنْ تَخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنَ أَنْ تَخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ، فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِي أَتُصِيبُ فِيهِمْ حُكْمَ اللهِ أَمْ لاَ)[1].

**وَيُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ بِمَا يَلِي:**

(١) تحريمُ التمثيلِ، والغلولِ، والغدرِ، وقتلِ الوليدِ.

(٢) يُشْرَعُ للإمامِ بعثُ الجيوشِ والسرايَا.

(٣) لا يجوزُ القتالُ قبل الدعوةِ، لأنهُ جعلَ القتالَ آخرَ مرحلةٍ.

(٤) جواز أخذ الجزية من غير اليهود والنصارى والمجوس، لأن أهل الكتاب نص القرآن على أخذها، والمجوس وردت به السنة، والصحيح أنها تؤخذ من جميع الكفار، لعموم قوله ﷺ: (من كفر بالله)، ولم يقل: اليهود والنصارى.

(٥) الإشارة إلى أن القتال ليس لإكراه الناس على أن يدخلوا فى الدين، أو يقاتلوا، وهذا هو الراجح الذى يؤيده القرآن والسنة، وأما قوله ﷺ: (أُمِرْتُ أَنْ

(١) رواه مسلم (١٧٣١)، وأخرجه ابن أبى شيبة (٩/ ٤٢٤)، وأبو داود (٢/ ٢٦)، والترمذى (علل) (٢/ ٦٩٣)، والدارمى (٢٤٣٩) (٢٤٤٢)، وابن ماجه (٢٨٥٨)، والنسائى (كبرى) (٨٧٦٥)، والطحاوى (مشكل) (٧٥٧٣) (٣٥٧٥)، وفى (المعانى) (٣/ ٣٠٦)، وأحمد (٥/ ٣٥٢)، والإرواء برقم: (١٢٤٧)، وصحيح الجامع برقم: (١٠٧٨-٥٠٦)، والجميع عن بريدة - رضي الله عنه -.

أُقَاتِلَ النَّاسَ)[1]. فَهُوَ عَامٌّ مَخْصُوصٌ بِأَدِلَّةِ الْجِزْيَةِ.

(٦) عِظَمِ الْعُهُودِ، وَلاَ سِيَّمَا إِذَا كَانَتْ عَهْدًا لِلهِ وَرَسُولِهِ.

(٧) جواز نزول أهل الحصن على حكم أمير الجيش.

(٨) أنهُ لا يجوزُ أَنْ يُنْزِلَهُمْ على حكم الله، إما فى عهد الرسول ﷺ، أو مطلقًا.

(٩) أن المجتهد قد يصيب، وقد يخطئ، لقوله ﷺ: (فإنك لا تدرى أتصيب فيهم حكم الله، أم لا)، وقال النبى ﷺ: (إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ)[2].

**إِذَنْ، هَلْ لِكُلِّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبٌ؟**

قِيلَ: لَيْسَ كُلُّ مُجْتَهِدٍ مَصِيبًا، وَقِيلَ: كُلُّ مُجْتَهِدٍ مصيبٌ فى الفروعِ، دُونَ الأصولِ.

وَالصَّحِيحُ: أن كل مجتهد مصيب من حيث اجتهاده، أما من حيث موافقته للحق، فإنه يخطئ ويصيب، ويدل على ذلك قوله ﷺ: (فاجتهد فأصاب، واجتهد فأخطأ) وظاهر الحديث والنصوص أنه شاملٌ للفروع والأصولِ، حيث دَلَّتْ تلك النصوص على أن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، لكن الخطأ المخالف لإجماع السلف خطأٌ ولو كان من المجتهدين، لأنه لا يمكن أن يكون مصيبًا والسلف غير مصيبين، سواء فى علم الأصول، أو الفروع.

(١٠) أن باب الاجتهاد باقٍ، لقوله ﷺ: (لا تدرى أتصيب فيهم حكم الله أم لا)، فالواجب على من تمكن من أخذ الحكم من الكتاب والسُّنة أن يأخذه منهما، لكن لكثرة السنن وتفرقها لا ينبغى للإنسان أن يحكم بشىءٍ بمجرد أن يسمعَ حديثًا فى هذا الحكم حتى يثبت، لأن هذا الحكم قد يكون منسوخًا، أو مقيدًا، أو عامًا، وأنت تظن بخلاف ذلك.

---

(١) السلسلة الصحيحة برقم: (٤٠٧)، وصحيح الجامع برقم: (١٣٧٢-٥٩٩) من حديث أبى هريرة - رضي الله عنه -.

(٢) رياض الصالحين برقم: (١٨٦٥)، ومختصر مسلم (١٠٥٦)، وصحيح الجامع برقم: (٤٩٣)، وجاء فى الصحيحين، ورواه الإمام أحمد، والأربعة من حديث أبى هريرة - رضي الله عنه -.

(١١) فيه إثبات الحكم لله - عزّ وجل - وحكم الله ينقسم إلى قسمين:

أ - حُكْمٌ شَرْعِيٌّ: وهو ما يتعلق بالشرع والعبادة، وهذا من الناس من يأخذ به، ومنهم من لا يأخذ به، كما جاء فى كتابه تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ (الممتحنة: ١٠).

ب - حُكْمٌ كَوْنِيٌّ: وهو ما يتعلق بالكون، ولا يمكن لأحد أن يخالفه، كما جاء فى كتابه تعالى: ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ﴾ (يوسف: ٨٠). (١)

وَذَهَبَ الْإِمَامُ مَالِكٌ إلى أنه قال فى هذا الشأن: (لا يقاتل الكفار قبل أن يُدْعُوا، ولا تلتمس غِرَّتَهُمْ إلا أن يكونوا قد بلغتهمُ الدعوةُ، فيجوز أن تلتمس غرتهم)، وهذا الذى صار إليه مالك هو الصحيح، لأن فائدة الدعوة أن يعرف العدو أن المسلمين لا يقاتلون للدنيا ولا للعصبية، وإنما يقاتلون للدين، فإذا علموا بذلك أمكن أن يكون ذلك سببًا مُميلاً لهم إلى الانقياد إلى الحق، بخلاف ما إذا جَهِلُوا مقصود المسلمين، فقد يظنون أنهم يقاتلون للملك وللدنيا فيزيدون عُتُوًّا وَبُغْضًا، والله أعلم (٢).

❁ وَأَشَارَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُ، بِمَا يُسْتَفَادُ من الحديث السابق، فوائد مُجْمَعٌ عليها وهى:

- تَحْرِيمُ الْغَدْرِ، أَىْ: لاَ يَتَّخِذُونَ عَلَى غِرَّةٍ، وَلاَ يُفَاجَئُونِ بِالْمَوْقِفِ.
- تَحْرِيمُ الْغُلُولِ، أى: الذى قُيِّدَتْ يَدَاهُ وَرِجْلاَهُ، أَوْ عُنُقُهُ.
- تَحْرِيمُ قَتْلِ الصِّبْيَانِ إِذَا لَمْ يُقَاتِلُوا، أى: حرمة قتل الصبيان، إلا إذا بدأواهم بالقتال.
- كَرَاهَةُ الْمُثْلَةِ، أي: يكره التمثيل بجثث الموتى، وتقطيع أعضائهم والتشهير بها.
- استحباب وصية أمراءه وجيوشه بتقوى الله تعالى.
- الرِّفْقُ بِأَتْبَاعِهِمْ، وتعريفهم ما يحتاجون فى غزوهم، وما يجب عليهم، وما يحلُّ لهم،

(١) فتح المجيد بشرح كتاب الوحيد. الشيخ عبدالرحمن بن حسن آل شيخ: (٢/ ٣٣٦: ٣٣٨).
(٢) المصدر السابق: (٢/ ٣٣٩).

وما يُحْرَمُ عليهم، وَمَا يُكْرَهُ وَمَا يُسْتَحَبُّ.[1]

وَقَدْ نَقَلَ د. سهيل ذكار فى كتابه (حطين مسيرة التحرير) ص: (٧، ٨) تحت عنوان (سيرتهم وسيرتنا) أنه كتب: (وحفلت الكتابات الأوربية للعصور الوسطى بالحديث عن أكل الأوربيين للحوم العرب، فقد حدثت أثناء الحملة الصليبية الأولى أن شكا قائد وحدة من رجالات الحملة جوع أتباعه، وانعدام الطعام إلى بطرس الناسك، فأشار عليه بطرس بجمع جثث قتلى المسلمين وَسَلْخِهَا وَشَيِّهَا لأكلها)، وقبل ذلك التاريخ - ١٠١٨م -: (أغار - روجر النورماندى - على (الأندلس)، وقام بجمع الجثث، من العرب، وأقام (وَلِيمَةً) كبيرةً لجيشه كان طعامها من لحوم الجثث، ومثل هذا وُرِدَ وَاضِحًا فى ملحمة (ريتشارد قلب الأسد) المكتوبة فى القرن الثانى عشر، أيام رتشاد وأثناء الحديث عن الحملة الصليبية الثالثة وحصار مدينة عكا، ففى أثناء ذلك أُصِيبَ ريتشارد بِحُمَّى حَادَّةٍ، ألزمته الفراش وجعلته يرفض مَا يُقَدَّمُ له من طعامٍ وشرابٍ، وطلب فى أحد الأيام أَنْ يَقُدَّمَ لَهُ شِوَاءِ خِنْزِيرٍ، وقام طباخ الملك بالتفتيش عن خِنْزِيرٍ فلم يجد، وهنا قال لنفسه: خُذْ فَتًى عَرَبِيًّا يَانِعًا قَدْ فَارَقَ دُنْيَاهُ التَّعِسَةِ لِتَوِّهِ، وعليك بتنظيفه، وفركه، وسلخه، وقبل أن يَفسدَ لحمهُ مَلِّحْهُ وَضَعْ لَهُ تَوَابِلَ حَارَّه، وَاطْلِهِ بالعصفر، ثُمَّ اشْوِهْ، فعندما يتذوق مليكنا طعم هذا الشواء سيشفى من حُمَّاهُ الشديدة وستعودُ لهُ قُوَاهُ، وأكلَ الملكُ اللَّحْمَ وشَرِبَ المرقَ، ثم غرق فى سُبَاتٍ عَمِيقٍ أفاق بعده وقد اسْتَرَدَّ عَافِيَتَهُ، وحمل سلاحه، وامتطى حصانه، ونزل ساحة الوغى، حيث قاتل قتالاً شديدًا، وعندما عاد إلى خيمته فى المساء، طرحَ سلاحهُ جانبًا، ونزع ثيابهُ، ثم نادى طباخهُ، وقال له: أخشى عودة الْحُمَّى إِلَيَّ، لذلك أَحْضِرْ لِي رَأْسَ الْخِنْزِيرِ، وَهُنَا تَرَدَّدَ الطَّبَّاخُ، وخاف من ملكه، ثم أقدم على حمل رأس الْعَرَبِيِّ إليه، ووضعه أمامه على مائدته، وَفُوجِئَ الملك فى البداية، لَكِنَّهُ ما لَبِثَ أَنِ انْفَجَرَ ضَاحِكًا، ذلك أنه فهم الحكاية، وصاح: عَجَبًا هَلْ لُحُومُ الْعَرَبِ طَيِّبَةٌ إِلَى هَذَا

(١) مسلم بشرح النووى: (٦/ ١٦٩).

الْحَدِّ؟ بِحَقِّ مَوْتِ الرَّبِّ وصُعُودَهُ، لَنْ تُهْدَرُ حَيَوَانَاتَنَا بَعْدَ الْيَوْمِ جَوْعًا، مَادُمْنَا قَادِرِينَ على الهجوم، ونقتل العرب وَنُعَوِّض نقص الْـمُؤَنِ لدينا، فقد نَعِمْنَا بمذاق لحومهم، وما علينا إلا أن نشوى جثثهم، أو نقليها، أو ..... )[1].

وَعَلَى الْعَكْس مِنْ ذَلِكَ تَمَامًا، فَيُنْقَلُ تحت عنوان (سيرتنا) (ص: ٦)، قال الحق تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (الأنفال: ٣٩) وقوله: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، ويقول من كان فى خدمة (صلاح الدين): (ولقد كتب راكبًا فى خدمته، أى: (صلاح الدين) فى بعض الأيام قبالة الإفرنج، ولقد وصل بعض (اليزكيَّة)، أى: طلائع الجيش، ومعه امرأةً شَدِيدَةَ التَّحَرُّقِ كَثِيرَةَ الْبُكَاءِ، متواترة الدَّقِّ على صَدْرِهَا، فقال اليزكيُّ: إن هذه خرجت من عند الإفرنج، فَسَأَلْتُ الحضورُ بينَ يَدَيْكَ، وقد أَتَيْنَا بِهَا، فأمر الترجمان أن يسألها عن قضيتها، فقالت: اللصوص المسلمون دخلوا البارحة إلى خيمتى، وسرقوا ابنتى، وَبِتُّ البارحة أستغيث إلى بُكْرَةَ النَّهَارِ، فَقِيلَ لِى: الْمَلِكُ هُوَ رَحِيمٌ، ونحن نخرجك إليه تطلبين ابنتك منه، فأخرجونى إليك، وما أعرف بنتى إلا منك، فَرَقَّ لَهَا وَدَمَعَتْ عَيْنَيْهِ، وَحَرَّكَتْهُ مُرُوءَتَهُ، وأمرَ مَنْ ذهب إلى سوق العسكر يسأل عن الصغيرة من اشتراها، ويدفع لها ثمنها، وَيُحْضِرُهَا، فَمَا مَضَتْ سَاعَةً حتى وصل الفارسُ والصغيرة على كتفه، فما كان إلاَّ أَنْ وقعَ نظرها عليها، فَخَرَّتْ إلى الأرض تُعَفِّرُ وَجْهَهَا فى التراب والناسُ يبكونَ على ما نالهَا، وَهِىَ تَرْفَعُ طَرْفَهَا إِلَى السَّمَاءِ، وَلاَ نَعْلَمُ مَا تَقُولُ، فَسُلِّمتْ ابنتها إليها، وَحُمِلَتْ، وَأُعِيدتْ إلى عَسْكَرِهِمْ) [2].

وَلِذَلِكَ فَقَدْ غَزَا مُعَلِّمُ الْبَشَرِيَّةِ محمد ﷺ تسع عشرة غزوة عَلَّم فيها الصحابة أن لا يجهزون على جريح، ولا يتبعون مُدْبِرًا، ولا يقتلون أسيرًا، ولا معاهدًا، فقد جاء فى

(١) (ريتشارد قلب الأسد) ترجمة إنكليزية – ط – نيويورك ١٩٦٦م (ص: ١٩٣).

(٢) رياض النعيم. أبو عبدالرحمن سلطان بن على سلطان (ص: ٦٠٠).

الحديث المتفق عليه من حديث أبى إسحاق أنه قال: قلت لزيد بن أرقم: كم غزا رسول الله ﷺ؟ قال: تسع عشرة غزوة، قلت له: كم غزوة أنت مع رسول الله ﷺ؟ قال: سبع عشر غزوة، قال: قلت: ما أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ؟ قال: ذو العشيرة، أو ذا العسيرة.(١)

وأخرج مسلم من حديث عبدالله بن بريدة عن أبيه أنه قال: غزا رسول الله ﷺ تسع عشرة غزوة قاتل منها فى ثمان(٢).

قَدْ غَيَّرَ فِيهَا ﷺ أَغْرَاضَ الْحُرُوبِ وأهدافها التى كانت تضطرم نار الحرب لأجلها فى الجاهلية، فبينما كانت الحرب عبارة عن النهب والسلب والسرقة والإغارة والظلم والبغى والعدوان، وأخذ الثأر، والفوز بالوتَرَ، وَكَبْتُ الضَّعِيفِ، وتخريب العمران، وتدمير البنيان، وهتك حرمات النساء، والعبث والفساد فى الأرض - فى الجاهلية - إِذْ صَارَتْ هذه الحرب - فى الإسلام - جِهَادًا فى تحقيقِ أهدافٍ نبيلةٍ، وأغراضٍ ساميةٍ، وغاياتٍ محمودةٍ، يَعْتَزُّ بها المجتمع الإنسانىُّ فى كل زمانٍ ومكانٍ، فقد صارت الحرب جهادًا فى تخليص الإنسان من نظام القهر والعدوان، إلى نظام العدالةِ وَالنَّصَفِ، مِنْ نِظَامٍ يَأْكُلُ فِيهِ الْقَوِىُّ الضعيفِ، إلى نظام يصير القوىُّ فيه ضعيفًا حتى يُؤْخَذَ مِنْهُ، وصارت جهادًا فى تخليص ﴿ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ (النساء: ٧٥)، وصارت جهادًا فى تطهير أرض الله من الغدرِ والخيانةِ والإثم والعدوانِ، إلى بسطِ الأمنِ والسلامةِ والرحمةِ ومراعاةِ الحقوقِ والمروءةِ، كما شُرِعَ للحروبِ قواعد شرعية ألزم التَّقَيُّدَ بها على

(١) متفق عليه: أخرجه البخارى فى كتاب (المغازى) باب (غزوة العشيرة) (٤/ ١٤٥٣) حديث رقم: (٣٧٣٣)، قال: جدثنى عبدالله بن محمد حدثنا وهب، حدثنا شعبة ... به.

ومسلم فى كتاب (الجهاد) باب: (عدد غزوات الرسول ﷺ) (٣/ ١٤٤٧/ ١٢٥٤) قال: حدثنا محمد بن المثنى وابن بشار واللفظ لابن المثنا. قال: حدثنا محمد بن جعفر. حدثنا شعبة عن أبى إسحاق.

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب (الجهاد) (٣/ ١٤٤٨/ ١٨١٤).

جنوده وَقُوَّادُهَا، ولم يسمح لهم بالخروج عنها بحال، وكان يأمرُ بِالتَّيْسيرِ فَيَقُولُ: (يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا، وَتَطَاوَعَا وَلاَ تَخْتَلِفَا) (١).

وَكَانَ إِذَا جَاءَ قَوْمًا بِلَيْلٍ، لم يُغِرْ عليهم حتى يُصْبِحَ، ونهى أَشَدَّ النَّهْى عن التحريق فى النار، ونهى عن قَتْلِ الصَّبْرِ، وقتل النساءِ وضربهنَّ، ونهى عن النَّهْبِ حتى قال: (إِنَّ النُّهْبَةَ لَيْسَتْ بِأَحَلَّ مِنَ الْمَيْتَةِ) (٢).

وَنَهَى عَنْ إِهْلاَكِ الْحَرْثِ، وَالنَّسْلِ، وقطع الأشجار إلا إذا اشتدت إليها الجاحة، ولا يبقى سواه سبيل، وقال عند فتح مكة: (لاَ تَجْهَزَنَّ عَلَى جَرِيحٍ، وَلاَ تَتْبَعَنَّ مُدْبِرًا، وَلاَ يَقْتُلَنَّ أَسِيرًا)، وَأَمْضَى السُّنَّةَ بِأَنَّ السَّفِيرَ لاَ يُقْتَلُ، وَشَدَّدَ فى النَّهْىِ عَنْ قَتْلِ الْمُعَاهِدِينَ حَتَّى قَالَ: (مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يُرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا) (٣).

وَقَالَ أَيْضًا: (مَنْ قَتَلَ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ لَمْ يَجِدْ رِيحَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ سَبْعِينَ عَامًا) (٤).

إلى غير ذلك من القواعد النبيلة التى طَهَّرَتْ الحروب من أدران الجاهلية حتى جعلتها جهادًا مقدسًا. (٥)

---

(١) مختصر مسلم (١١١٢)، والسلسلة الصحيحة برقم: (١١٥١)، وصحيح الجامع برقم: (٨٠٨٧-٣١٧٠)، ورُوِىَ فى الصحيحين، ومسند الإمام أحمد من حديث أبى موسى - رضي الله عنه -، ومسلم: (٢/ ٨٢، ٨٣)، والمعجم الصغير للطبرانى: (١/ ١٢٣، ١٨٧).

(٢) السلسلة الصحيحة برقم: (١٦٧٣)، وصحيح الجامع: (١٩٨٦).

(٣) غاية المرام (٤٤٩)، والسلسلة الصحيحة برقم: (٦٤٥٧)، وصحيح الجامع برقم: (٦٤٥٧)، والحديث رواه البخارى، وابن ماجه، والنسائى، والإمام أحمد من حديث ابن عمرو - رضي الله عنه -.

(٤) الحديث صحيح: جاء فى سنن ابن ماجه، والحاكم عن أبى هريرة - رضي الله عنه -، والترغيب للمنذرى برقم: (٣/ ٢٠٤)، وصحيح الجامع برقم: (٦٤٤٨-٩١٩٢).

(٥) الرحيق المختوم للمباركفورى (ص: ٣٧٩)، وَانْظُرْ ذلك مُفَصَّلاً فى زاد المعاد لابن القيم: (٢/ ٦٤-٨٢).

بَادِرْ إِلَى الْخَيْرِ يَاذَا اللُّبُّ مُغْتَنِمَا وَلاَ تَكُنْ مِنْ قَلِيلِ الْخَيْرِ مُحْتَشِمَا
وَاشْكُرْ لِمَوْلاَكَ مَا أَوْلاَكَ مِنْ نِعَمٍ فَالشُّكْرُ يَسْتَوْجِبُ الْإِفْضَالَ وَالْكَرَمَا
وَارْحَمْ بِقَلْبِكَ خَلْقَ اللهِ وَارْعَهُمُ فَإِنَّمَا يَرْحَمُ الرَّحْمَنُ مَنْ رَحِمَا

فالله يرحم الرحماء، ومن لا يرحم الناس لا يرحمه الرحمن، كما قال ﷺ: (مَنْ لاَ يَرْحَمِ النَاسَ، لاَ يَرْحَمْهُ اللهُ) (١)، وعن عبدالله بن عمرو - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: وهو على المنبر: (ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يُغْفَرُ لَكُمْ، وَيْلٌ لِأَقْمَاعِ الْقَوْلِ، وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (٢).

فَاعْلَمْ عَبْدَاللهِ أَنَّ أَقْرَبَ النَّاسِ مِنْ رَحْمَتِهِ تَعَالَى، أَرْحَمُهُمْ لِخَلْقِهِ.

(١) الحديث صحيح: رواه الإمام أحمد فى مسند، والترمذى من حديث جرير - رضي الله عنه -، وأبى سعيد الخدرى - رضي الله عنه -، وصحيح الجامع برقم: (٦٥٩٧).

(٢) الحديث رواه البخارى فى (الأدب)، ورواه الإمام أحمد (٦٥٠٥)، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة برقم: (٤٨٢).

## الْمَبْحَثُ الرَّابِعُ:

# الْأَقْرَبُ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا

### الْقُرْبُ وَالْمَوَدَّةُ:

إن الناظر فى النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، ليجد علاقةً عضويةً بين الإسلام واليهودية والمسيحية، وهذه العلاقة تُجَسِّدُهَا النصوص التى أُرْسِلَتْ من عند الله تعالى على لسان جبريل عليه السلام، ليبلغها للرسل، لِيُصْبِحَ الْمَضْمُونُ وَالْمُحْتَوَى وَاحِدٌ، وهو القرآن والتوراة والإنجيل، كما جاء فى كتابه تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ (الشورى: ١٣)، وجاء فى الصحيحين من حديث أبى هريرة - رضي الله عنه - أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (نَحْنُ مَعْشَرُ الْأَنْبِيَاءَ أَوْلَادُ عَلَّاتٍ دِينُنَا وَاحِدٌ)[1].

أى: القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم ومنهاجهم، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾ (المائدة: ٤٨).

أَمَّا عَلَى مُسْتَوَى الْأَنْبِيَاءِ فهم أخوة ولا فرق بين أحد من الرسل، كما جاء فى كتابه تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ (البقرة: ٢٨٥)، وجاء فى الصحيحين من حديث أبى هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: (أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لَيْسَ بَيْنِى وَبَيْنَهُ نَبِىٌّ، وَالْأَنْبِيَاءُ

(١) البخارى (٣٤٤٢، ٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥).

أَوْلَادُ عَلَّاتٍ؛ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ)[1].

وأَمَّا عَلَى مُسْتَوَى الْكُتُبِ، فالقرآن يصدق التوراة والإنجيل، والكتب تصدق بعضها بَعْضًا، كما جاء فى كتابه تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ (آل عمران: ١-٤) ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ (المائدة: ٤٤).

فَالْقُرْآنُ مُرْتَبِطٌ بِالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَمَا شُرِعَ فى القرآنِ، شُرِعَ بما قبلهُ، فأصبحوا يدعون إلى أصول مشتركة، لأن الرسالات الثلاثة تضمنت رسالةً واحدةً الأصلُ فيهم عبادة الله وحده لا شريك له، والقرآن يصور ويرسم العلاقة بين الأديان الثلاثة بالمودة والرحمة، ولكن شَذَّتْ عنهم اليهودية وانحرفت عن طريق الصواب وذلك بإظهار العداء للنبى ﷺ، ولم يكتفوا بذلك، وإنما تحركُوا بتحركاتٍ عدائيةٍ لِوَأْدِ شَأْفَةِ الإسلامِ وَإِبْطَالِ دَعْوتِهِ، لأنهم تحالفوا مع أهل مكة من الوثنيين على إخراج النبى من مكة وهى أحب البلاد إلى قلبه، ولم يكتفوا بذلك، بل تحالفوا على قتله، ولذلك انزل الله تعالى فى كتابه التحذير من هؤلاء، وإبراز العداوة لأهل الإيمان، كما جاء فى كتابه تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ (المائدة: ٨٢).

**فالآية الكريمة تبين وتوضح ثلاثة علاقات فى هذا الشأن:**

فَالْمَقْطَعُ الْأَوَّلُ من الآية هو إظهار عداوة اليهود والمشركين، لأنهم هم الذين بدأو بها، وقد أَسْنَدَ الله العداوة لهم ضد المؤمنين نتيجة تصرفهم ضد المسلمين.

وَالْمَقْطَعُ الثَّانِى: وهو الذى يبين علاقة المسلمين بالمسيحيين، كما جاء فى كتابه تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ (المائدة: ٨٢)

(١) الحديث رواه البخارآن ومسلم، وجاء فى اسند للإمام أحمد، وسنن أبى داود من حديث أبى هريرة - رضي الله عنه - وجاء فى مختصر مسلم (١٦١٨)، وصحيح الجامع برقم: (١٤٥٢).

ومعنى كلمة (نصارى)، أى: الذين نصروا عيسى عليه السلام، فعلاقة النصارى بالمسلمين علاقة مَوَدَّةٌ وَمَحَبَّةٌ، وقد بيّن القرآن الكريم التحليل النفسى لذلك حيث قال: (ذلك بأن منهم قسيسين) أى: علماءً، ورهبانًا.

وَأَمَّا الْمَقْطَعُ الثَّالِثُ: وهو قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أى: متواضعون، ولا يقولون: (نحن شعب الله المختار)، ولذلك اختلفت النصارى عن اليهود بثلاثة صفات:

علماء دين، الزُّهَّاد، أى: الصَّالِحُونَ، ثم الأهم من ذلك كله، عَدَمُ الاسْتِكْبَارِ، أى: أَهْلُ تَوَاضُعٍ، وَأَهْلُ مَوَدَّةٍ، أَمَّا الْيَهُودُ، فهم علماء، ولكن عندهم الاستكبار والجهل، وجفاف الروح، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ (البقرة: ٨٨)، وأنهم مستكبرون، أى: لا يميلون إلى الحق، لِذَلِكَ قَدْ مَيَّزَاللهُ قُلُوبَ النَّصَارَى عِنِ الْيَهُودِ، بأن جعل فى قلوب الذين اتبعوا عيسى عليه السلام الرأفة والرحمة فى قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ﴾ (الحديد: ٢٧) أى: فى قلوب الذين اتبعوه من غير المسلمين رحمةً إلى يوم القيامة، كما جاء فى كتابه تعالى: ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (المائدة: ٨٢).

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ قَالَ الْمُهَايِمِيُّ: إنما عاداهم اليهود لإيمانهم بعيسى ومحمد ﷺ، وعاداهم المشركون لتوحيدهم وإقرارهم بنبوة الأنبياء، وَقَالَ غَيْرُهُ: لِشِدَّةِ إِبَائِهِمْ، وَتَضَاعُفِ كُفْرِهِمْ، وَانْهِمَاكِهم فى اتباع الهوى، ورُكونهم إلى التقليد، وبُعدهم عن التحقيق، وتمردهم على التَّمَرُّدُ والاستعصاء على الأنبياء، والاجتراء على تكذيبهم، ومناصبتهم العداء لهم، ولهذا قتلوا كثيرًا منهم حتى هَمُّوا بقتل رسول الله ﷺ غير مَرَّةٍ، وَسَمُّوهُ وَسَحَرُوهُ، وَأَلَّبُوا عليه أشباههم من المشركين،

وفى تقديم (اليهود) على (المشركين) إشعارٌ بتقدمهم عليهم فى العداوة، كما جاء فى كتابه تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾ (البقرة: ٩٦) إيذانًا بتقدمهم عليهم فى الحرص ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ﴾ أَىْ: لِلِينِ جَانِبِهِمْ، وَقِلَّةَ غِلِّ قُلُوبِهِمْ[1]

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أى: الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله، فيهم مَوَدَّةً لِلْإِسْلَامِ وأهله فى الجملة، وَمَا ذَاكَ إلاَّ لِمَا فى قلوبهم إذْ كانوا على دين المسيح من الرِّقَّةِ وَالرَّأْفَةِ، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ﴾ (الحديد: ٢٧)، وفى كتابهم: (مَنْ ضَرَبَكَ عَلَى خَدِّكَ الْأَيْمَنَ، فَأَدِرْ لَهُ خَدَّكَ الْأَيْسَرَ)، وليس القتالُ مشروعًا فى ملَّتِهِمْ، ولهذا قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾، أى: يوجد فيهم القِسِّيسُونَ وهم: خُطَبَاؤُهُمْ وَعُلَمَاؤُهُمْ، وأما قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أى: تضمن وصفهم، بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع، ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه وانصافه، فقال: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ (المائدة: ٨٣) أى: مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به، عن عبدالله بن الزبير قال: نزلت هذه الآية فى النجاشى وفى أصحابه، يقول تعالى: ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (المائدة: ٨٤) وَهَذَا الصِّنْفُ من النصارى هم المذكورون فى قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ ﴾ (آل عمران: ١٩٩) وهم الذين قال اللهم فيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ

(١) محاسن التأويل للقاسمى: (٤/ ٢٢٩-٢٣٠).

ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (القصص: ٥٢-٥٥) وقوله تعالى: ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (المائدة: ٨٥) أى: ماكثين فيها أبدًا لا يُحَوَّلُونَ وَلاَ يَزُولُونَ ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أى: فى اتباعهم الْحَقَّ، وانقيادهم لهُ حَيْثُ كَانَ، وَأَيْنَ كَانَ، وَمَعَ مَنْ كَانَ. [١]

وَلَمَّا اشْتَدَّ الْكَرْبُ بِصَحَابَةِ رسول الله ﷺ، وضاقت عليهم الأرض بما رَحُبَتْ، وضاقت عليهم مَكَّةَ وَأُوذُوا، وخافوا على أنفسهم فى دينهم، ورسول الله ﷺ لا يستطيع دَفْعَ الضُّرِّ عنهم فى تلك الآونة، أوصاهم بالذهاب إلى الحبشة، لأن بها مَلِكًا لا يظلم عنده أحد، كما جاء فى الحديث الذى أخرجه الإمام أحمد من حديث أم سلمة زوج النبى ﷺ أنها قالت: (لما ضاقت علينا مكة وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ، وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة فى دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله ﷺ فى مَنْعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ ومِنْ عَمِّه، لا يصلُ إليه شيءٌ مِمَّا يَكْرَهُ مِمَّا يَنَالُ من أصحابه، فقال لهم: (إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لاَ يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ، فَالْحَقُوا بِبِلاَدِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجًا، وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيه)، فخرجنا إليه أرسالاً حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخيرِ دَارٍ وإلى خيرِ جارٍ آمنًا على دِينِنَا، وَلَمْ نَخْشَ مِنْهُ ظُلْمًا، فلما رأت قريش أنا قد أصبنا دارًا وأمنًا اجتمعوا على أن يبعثوا إليه فينا فيخرجنا من بلاده، وَلِيَرُدَّنَا عليهم، فبعثوا عمرو بن العاص، وعبدالله بن أُبَىِّ بن ربيعة، فجمعوا له هدايا ولبطارقته، فلم يدعوا منهم رجلاً إِلاَّ هَيَّئُوا لَهُ هَدِيَّةً عَلَى حِدَةٍ، قالوا لهما: ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن يكلمهم فافعلوا، فقدما علينا، فلم يبق بطريق من بطارقته إلا قدموا إليه هديته وكلموه، فقالوا له: إنا قدمنا على هذا الملك فى سفهاء من سفهائنا فارقوا أقوامهم فى دينهم، ولم يدخلوا فى دينكم، فبعثنا قومهم لِيَرُدَّهُمُ الملك

(١) صحيح تفسير ابن كثير: (١/ ٦٦٤-٦٦٥).

عليهم، فإذا نحن كلمناه فأشيروا عليه بأن يفعل، فقالوا: نفعل، ثم قَدَّمُوا إلى النجاشى هداياه، وكان من أحبَ ما يُهْدَى إليه من مَكَّةَ الأدمُ، فلما أَدْخَلُوا عليه هداياه قالوا له: أيها الملك إن فتيةً من سفهائنا فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا فى دينك وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه، وقد لجئوا إلى بلادك، فَبَعَثَنَا إليك فيهم عَشَائِرُهُمْ آباؤهم، وأعمامهم، وقومهم، لِتَرُدَّهُمْ عليهم فهم أعلاهم عَيْنًا، فقالت بطارقته: صدقوا أيها الملك لِرددتهم عليهم كانوا أعلاها عَيْنًا، فإنهم لم يدخلوا فى دينك فتمنعهم بذلك، فغضب، ثم قال: لا لعمر الله لاَ أَرُدَّهُمْ إليهم حتى أدعوهم فأكلمهم وأنظرُ ما أمرهم، قَوْمٌ لجئوا إلى بلادى واختاروا جِوَارِى على جوار غيرى، فإن كانوا كما تقولون رددتهم عليهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم، ولم أخل ما بينهم وبينهم، ولم أُنْعِمْهُمْ عَيْنًا، فأرسل إليهم (النجاشى) فجمعهم، ولم يكن شىء أبغض إلى (عمرو بن العاص وعبدالله بن ربيعة) من أن يسمع كلامهم، فلما جاءهم رسول النجاشى، اجتمع القوم فقال: ماذا تقولون؟ فقالوا: وماذا نقول؟ نقول والله ما نعرف، وما نحن عليه من أمر ديننا وما جاءنا به نبينا ﷺ كَائِنٌ فِى ذَلِكَ مَا كَانَ، فلما دخلوا عليه كان الذى يكلمه منهم (جعفر بن أبى طالب).

فقال النجاشى: ما هذا الدين الذى أنتم عليه، فارقتم دين قومكم، ولم تدخلوا فى يهودية ولا نصرانية، فما هذا الدين؟

قال جعفر: أيها الملك، كُنَّا قَوْمًا على الشرك نعبد الأوثان، ونأكل الميتة، ونسىء الجوار، وَنَسْتَحِلُّ الْمَحَارِمَ بعضنا من بعض، فى سفك الدماء وغيرها، لا نحل شيئًا وَلاَ نُحَرِّمُهُ، فبعث الله إلينا نَبِيًّا من أنفسنا نعرف وفاءه وصدقه وأمانته، فدعانا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونصل الرحم، ونحسن الجوار، ونصلى لله، ونصوم له، ولا نعبد غيره.

قال: فقال: فهل معك شىءٌ مما جاء به؟ وقد دعا أساقفته، فأمرهم فنشروا المصاحف حوله.

فقال له جعفر: نعم.

فقال: هَلُمَّ فَاتْلُ عَلَيَّ ما جاء به، فقرأ عليه صدرا من ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ (مريم: ١) فبكى والله النجاشى حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته، حتى اخضلوا مصاحفهم، ثم قال: إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التى جاء بها عيسى، انطلقوا راشدين، لا والله لاَ أَرُدُّهُمْ عليكم ولا أُنْعِمُكُمْ عَيْنًا، فخرجنا من عنده وكان أبقى الرجلين فينا عبدالله بن أبى ربيعة، فقال عمرو بن العاص: والله لآتِيَنَّهُ غَدًا بما استأصل به خضراءهم فلأخبرنه أنهم يزعمون أن إلهه الذى يُعْبَدُ عيسى ابن مريم عَبْدٌ، فقال له عبدالله بن ربيعة: لا تفعل فإنهم وإن كانوا خالفونا فإن لهم رَحِمًا ولهم حَقًّا، فقال: والله لأَفْعَلَنَّ، فلما كان الْغَدُ دخل عليه فقال: أيها الملك إنهم يقولون فى عيسى قولاً عظيمًا، فأرسل إليهم فسألهم عنه، فبعث إليهم، ولم ينزل بنا مَثْلُهَا فقال بعضنا لبعض: ماذا تقولون فى عيسى إن هو سألكم عنه؟ نقول والله الذى قال الله تعالى فيه، والذى أمرنا به نبينا محمد ﷺ أن نقول فيه، فدخلوا عليه وعنده بطارقته، فقال: ماذا تقولون فى عيسى ابن مريم؟ فقال له جعفر: نقول: عبدالله ورسوله وكلمته وروحه ألقاها إلى مريم العذراء البتول، فَدَلَّى النَّجَاشِى يدهُ إلى الأرض وأخذ عويدًا بين إصبعيه فقال: ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العُويد، فتناخرت بطارقته، فقال: وإن تناخرتم والله، اذهبوا فأنتم سُيومٌ فى أرضى، والسيوم: الآمنون، مَنْ سَبَّكُمْ غَرِمَ، ثم من سبكم غرم، ثم من سبكم غرم، ثَلاثًا، مَا أُحِبَّ أَنْ لِى دَبْرًا وأنى آذيت رَجُلاً منكم، وَالدَّبْرُ بلسانهم الذهب، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رَدَّ عَلَيَّ مُلْكِى فآخذ الرشوة فيه، ولا أطاع الناس فِيَّ فأطيع الناس فيه، رُدُّوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لى بها، فاخرجا من بلادى فرجعا مقبوحين مردودًا عليهما ما جاء به، فَأَقَمْنَا مَعَ خَيْرِ جَارٍ، وَفِى خَيْرِ دَارٍ [(١)].

(١) الحديث إسناده صحيح: أخرجه أحمد فى (مسنده) (١/ ٢٠١) حديث رقم (١٧٤٠) من طريق إسحاق .... به، وأورده الهيثمى فى (المجمع) (٦/ ٢٥-٢٧) وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن إسحاق، وقد صرَّح بالتحديث، ورواه المصنف فى (السنن الكبرى) (٩/ ١٤٤) قال: أخبرنا أبو عبدالله الحافظ ... به، وصحح إسناده الشيخ/ أحمد شاكر.

وَلَمَّا تُوُفِّيَ النَّجَاشِيُّ وعلم رسول الله ﷺ صلّى عليه رسول الله ﷺ هو والصحابة صلاة الغائب، فقد جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد وغيره من حديث عمران بن حصين - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال للصحابة: (إِنَّ أَخَاكُمُ النَّجَاشِيَّ قَدْ مَاتَ، فَقُومُوا فَصَلُّوا عَلَيْهِ) (١).

وجاء فى الحديث المتفق عليه من حديث أبى هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ نَعَى لِلنَّاسِ النَّجَاشِيَّ الْيَوْمَ الَّذِى مَاتَ فِيهِ، وَخَرَجَ بِهِمْ إِلَى الْمُصَلَّى وَصَفَّ بِهِمْ وَكَبَّرَ أَرْبَعَ تَكْبِيرَاتٍ. (٢)

وأخرج ابن حبان وغيره من حديث عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: (كَانَ لاَ يَزَالُ يُرَى عَلَى قَبْرِ النَّجَاشِيِّ نُورٌ) (٣).

---

(١) الحديث صحيح: رواه الإمام أحمد، ومسلم، والترمذى، والنسائى، وابن ماجه من حديث عمران بن حصين، ورواه مسلم، والنسائى من حديث جابر - رضي الله عنه -، وجاء فى أحكام الجنائز برقم: (٩٠)، والإرواء برقم: (٧٢٧)، وصحيح الجامع برقم: (١٥٤٩-٦٩١).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخارى فى كتاب (الجنائز) باب (الرجل ينعى إلى أهل الميت بنفسه) (١/ ٤٢٠) حديث رقم: (١١٨٨) قال: حدثنا إسماعيل. قال: حدثنى مالك عن ابن شهاب ... به، ومسلم فى كتاب (الجنائز) باب (فى التكبير على الجنائز) (٢/ ٦٥٦/ ٩٥١) قال: حدثنا يحيى قال: قرأت على مالك عن ابن شهاب .... به.

(٣) إسناده صحيح: أخرجه ابن حبان فى (صحيحه) (١١/ ٥١٥) حديث رقم: (٥١١٤)، والطبرانى فى (الكبير) (٢٥/ ٨١) حديث رقم: (٢٠٥)، وابن سعد فى (الطبقات الكبرى) (٨/ ٩٥)، والمصنف فى (السنن لكبرى) (٦/ ٢٦) حديث رقم: (١٠٩١٠) جميعًا من طريق مسلم بن خالد الزنجى عن موسى بن عقبة عن أم كلثوم، قال ابن وهب: وفى روايته أم كلثوم بنت أبى سلمة قالت ... فذكره، والشيبانى فى (الآحاد والمثانى) (٦/ ٢٢٦) حديث رقم: (٣٤٥٩) من طريق مسلم بن خالد حدثنا موسى بن عقبة عن أن أم كلثوم ... فذكره، وسعيد بن منصور فى (سننه) (١/ ١٦١) حديث رقم: (٤٨٥)، من طريق مسلم بن خالد عن موسى عن عقبة عن أم كلثوم ... به، والحاكم فى (المستدرك) (٢/ ٢٠٥) حديث رقم: (٢٧٦٦) من طريق مسلم بن خالد ... به، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وَلَمَّا جَاءَ وَفْدُ (نَصَارَى نَجْرَانُ) وكانوا سِتُّونَ رَاكِبًا منهم أربعة وعشرون رجلاً من أشرافهم، والأربعةوالعشرون منهم ثلاثة نفرٍ يَؤُولُ إليهم أمرهم، ولما دخلوا الْمَسْجِدَ النَّبَوِيَّ دخلوا فى تجملٍ وثيابِ حِسَانٍ، وقد حانت صلاة العصر، فقاموا يصلون إلى المشرق، فقال رسول الله ﷺ: (دعوهم)، فكان المتكلمُ لهم أبا حارثة بن علقمة، والسيد، والعاقب، حتى نزلت فيهم صدر (آل عمران) (١).

وَرُوِىَ ابن إسحاقٍ أنه قال: لَمَّا قَدِمَ وفد (نصارى نجران) على رسول الله ﷺ دخلوا عليه بعد العصر فحانت صلاتهم، فقاموا يُصلون فى مسجده، فأراد الناس منعهم، فقال رسول الله ﷺ: (دَعُوهُمْ فَاسْتَقْبَلُوا الْمَشْرِقَ فَصَلُّوا صَلاَتَهُمْ) (٢).

وَلَمَّا فَتَحَ عمر بن الخطاب بيت المقدس، وصالح نصارى نجران بيت المقدس، واشترط عليهم إجلاء الروم إلى ثلاث، ثم دخلها، إِذْ دَخَلَ المسجد من الباب الذى دخل منه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء، وَيُقَالُ: إنه لَبَّى حين دخل المسجد، فصلى فيه تحية المسجد بمحراب داود، وصلى بالمسلمين فيه صلاة الغداة من الغد، فقرا فى الأولى بسورة (ص) وسجد فيها والمسلمون معه، وفى الثانية بسورة (بنى إسرائيل) (٣).

## الزَّوَاجُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَالْأَكْلُ مِنْ طَعَامِهِمْ:

لقد نشر الإسلام على أهل الذمة والمستأمنين والمعاهدين من اليهود والنصارى ظِلَّهُ وَحِمَايَتَهُ، وَكَفَلَ لهم جميع حقوقهم، وَحَسِبَهُمْ أَنَّ مَنْ ظَلَمَهُمْ، فقد خاصم رسول الله ﷺ، كما جاء فى سنن أبى داود، والبيهقى من حديث صفوان بن سليم أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) البداية والنهاية: (٥/ ٥٧).

(٢) إسناده ضعيف: أورده ابن القيم فى (زاد المعاد) (٣/ ٥٤٩)، وأورده الذهبى فى (تاريخ الإسلام) (١/ ٣٥٦) وقال: قال محمد بن إسحاق حدثنى: محمد بن جعفر بن الزبير ... به، فذكره وإسناده معضل لمحمد بن جعفر بن الزبير ثقة، ولكنه من صغار التابعين.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير: (٧/ ٥٤).

(أَلاَ مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوْ انْتَقَصَهُ حَقَّهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (١).

أَيْ: أنا الذى أخاصمه وَأُحَاجُّه يوم القيامة، ومعاهدًا، أى: ذِمِّيًا من أهل العهد، أى: الأمان والميثاق، فإذا كان الأمر كذلك، ألا يحق لنا أن نتعجب من أعداء (الوطنية) والذين يريدون أن يكيدوا لمصر، وذلك بأن يضعوا فتيل الفرقة بين المسلمين والنصارى بِدَعْوَى كراهية المسلمين لهم، فكيف يبيح القرآن إذن للمسلم الزواج باليهودية والنصرانية، والأكل من ذبائح أهل الكتاب؟ كيف يدعونا إلى كراهيتهم، ثم يبيح لنا مصاهرتهم؟ أَلاَ سَاءَ ما يَفْتَرُونَ، كيف يرخص لنا الْبِرِّ بِهِمْ، والقسطِ إليهم، ثم يَحُضُّ على نَهْبِهِمْ، أو قتلهم بعد عَقْدِ أَمَانٍ كَمَا يَدَّعُونَ المغرضون؟ أليست جسور متينة من العلاقات يُبَيِّنُهَا الإسلام لتقوية وَشَائِجِ الْقُرْبَى وأواصر المودة بين بنى البشر، لرحمته بالدعوة إلى الإسلام دين الرحمة؟ (٢).

قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ۖ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ﴾ (المائدة: ٥) لقد ذكر الله تعالى حُكْمَ ذبائح أهل الكتابين من اليهود والنصارى، فقال: ﴿ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ قال عدد من أهل العلم: يعنى ذبائحهم، وهذا أَمْرٌ مُجْمَعٌ عليه بين العلماء أن ذبائحهم حَلاَلٌ للمسلمين؛ لأنهم يعتقدون تحريم الذَّبْحِ لغير الله، ولا يذكرون على ذبائحهم إِلاَّ اسْمَ اللهِ، وإن اعتقدوا فيه تعالى ما هو مُنَزَّهٌ عنهُ تعالى وَتَقَدَّسَ، وقد ثبت فى الصحيح عن عَبْدِاللهِ بْنِ مُغَفَّلٍ قَالَ: أُدْلِيَ بِجِرَابٍ مِنْ شَحْمٍ يَوْمَ خَيْبَرَ، فَاحْتَضَنْتُهُ، وَقُلْتُ: لاَ أُعْطِي

(١) الحديث صحيح: رواه أبو داود برقم: (٣٠٥٢)، وغاية المرام برقم: (٤٧١)، وصحيح الجامع برقم: (٢٦٥٥-١٢٤١).

(٢) رياض النعيم أبو عبدالرحمن سلطان بن على الحسنى: (ص: ٤٠٤).

الْيَوْمَ مِنْ هَذَا أَحَدًا، وَالتَفَتُّ، فَإِذَا النَّبِيُّ يَتَبَسَّمُ (١).

فَاسْتَدَلَّ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّهُ يَجوزُ تناولُ ما يحتاجُ إليه من الأطعمةِ وَنَحْوِهَا من الغنيمة قبل القسمة وهذا ظاهرٌ، وثبت فى الصحيح أَنَّ أَهْلَ خَيْبَرَ أَهْدَوْا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ شَاةً مُصْلِيَّةً وَقَدْ سَمُّوا ذِرَاعَهَا، وَكَانَ يُعْجِبُهُ الذِّرَاعُ، فَتَنَاوَلَهُ فَنَهَشَ مِنْهُ نَهْشَةً، فَأَخْبَرَهُ الذِّرَاعُ أَنَّهُ مَسْمُومٌ فَلَفَظَهُ، وَأَثَّرَ ذَلِكَ السُّمُّ فِى ثَنَايَا رَسُولِ اللهِ ﷺ وَفِى أَبْهَرِهِ، وَأَكَلَ مَعَهُ مِنْهَا بِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ، فَمَاتَ، فَقَتَلَ الْيَهُودِيَّةَ الَّتِى سَمَّتْهُ، وَكَانَ اسْمُهَا زَيْنَبُ، فَقُتِلَتْ بِبِشْرِ بْنِ الْبَرَاءِ (٢).

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَالْحَسَنِ: أَنَّهُمَا كَانَا لاَ يَرَيَانِ بَأْسًا بِذَبِيحَةِ نَصَارَى بَنِى تَغْلِبَ، وَأَمَّا الْمَجُوسُ فَإِنَّهُمْ وَإِنْ أُخِذَتْ مِنْهُمُ الْجِزْيَةُ تَبَعًا وَإِلْحَاقًا لأَهْلِ الْكِتَابِ، فَإِنَّهُمْ لاَ تُؤْكَلُ ذَبَائِحُهُمْ وَلاَ تُنْكَحُ نِسَاؤُهُمْ (٣).

وقوله تعالى: ﴿ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ أى: ويحل لكم أن تُطْعِمُوهُمْ من ذبائحكم وليس هذا إخبارًا عن الحكم عندهم، اللهُمَّ إلاَّ أن يكون خَبَرًا عَمَّا أُمِرُوا به من الأكل من كل طعام ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عليه سَوَاءٌ كان من أهل مِلَّتِهِمْ، أو غيرها، والأول أظهرُ فى المعنى، أى: ولكم أن تطعموهم من ذبائحكم، كما أكلتم من ذبائحهم.

وقوله: ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ أى: وأحل لكم نكاح الحرائر العفائف من النساء المؤمنات، وذكر هذا توطئة لما بعده، وهو قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ أَرَادَ بِالْمُحْصَنَاتِ: الْحَرَائِرَ دُونَ الْإِمَاءِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ بِالْحُرَّةِ: الْعَفِيفَةَ، وهو قول الجمهور ههنا وهو الأشبهُ، لئلا يجتمع فيها أن تكون ذِمِّيَّةً وهى مع

(١) الحديث متفق عليه: رواه البخارى (٣١٣٥، ٤٢١٤)، ومسلم (١٧٧٢) بلفظٍ قريب.

(٢) البخارى (٢٦١٧)، والذى فى الصحيح من حديث أنس - رضي الله عنه - أن يهودية أتت النبى ﷺ بشاةٍ مسمومةٍ، فأكل منها، فقيل: ألا نقتلها؟ قال: (لا).

(٣) أنظر سنن سعيد بن منصور (١١٧، ٧١٩).

ذلك غيرُ عفيفةٍ فَيَفْسِدُ حَالُهَا بِالْكُلِّيَّةِ، ويتحصلُ زَوْجُهَا على مَا قِيلَ فى المثلِ: (حَشْفًا وَسُوءَ كَيْلَةٍ).

وَالظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ، أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمُحْصَنَاتِ: الْعَفِيفَاتِ عَنِ الزِّنَا، كما قال تعالى فى آيةٍ أُخْرَى ﴿ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ﴾ (النساء: ٢٥) وقد تزوج جماعة من الصحابة من نساء النصارى، وَلَمْ يَرَوْا بِذَلِكَ بَأْسًا أَخْذًا بهذه الآية الكريمة ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ فجعلوا هذه الآية مخصصة للآية التى فى سورة البقرة ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ﴾ (البقرة: ٢٢١) فَإِنْ قِيلَ بدخول الكتابيات فى عمومها، وإلا فلا معارض بينها وبينها؛ لأن أهل الكتاب قد انفصلوا فى ذكرهم عن المشركين فى غير موضع، كقوله تعالى: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ (البينة: ١) وكقوله: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ﴾ (آل عمران: ٢٠) وقوله: ﴿ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ أَيْ: مُهُورَهُنَّ، أَيْ كَمَا هُنَّ مُحْصَنَاتٌ عَفَائِفُ فَلْبَذْلُوا لَهُنَّ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ، وقوله: ﴿ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ﴾ فَكَمَا شَرَطَ الْإِحْصَانَ فِى النساءِ وَهِىَ الْعِفَّةُ عن الزنا، كذلك شرطها فى الرجال وهو أن يكون الرَّجُلُ مُحْصَنًا عَفِيفًا[1].

- النَّهْىُ عَنْ قِتَالِهِمْ، لأن الله نهى عن قتال الطائفة التى لم تُبَادِئْ المسلمين بالقتال فقال: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (الممتحنة: ٨) أى: لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة الذين لا يقاتلوكم فى الدين، ولا يعاونوا على إخراجكم كالنساء والضعفة منهم ﴿ أَن تَبَرُّوهُمْ ﴾ أى: تُحْسِنُوا إليهم ﴿ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ﴾ أى: تعدلوا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾، وقد جاء فى الحديث المتفق عليه من حديث أسماء بنت أبى بكر - رضي الله عنهما - قَالَتْ: قَدِمَتْ أُمِّى وَهِىَ

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ٥٩٦-٥٩٨).

مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ، إِذْ عَاهَدُوا، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُهَا؟ قَالَ: (نَعَمْ، صِلِي أُمَّكِ)[1].

وجاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد من حديث عبدالله بن الزبير أنه قال: قدمت قتيلة على ابنتها أسماء بنت أبى بكر بهدايا: ضِبَاب، وقرظ، وسمن، وهى مشركة، فأبت أسماء أن تقبل هديتها، وَتُدْخِلَهَا بيتها، فسألت عائشةُ النبى ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ الآية، فأمرها أن تقبل هديتها، وَأَنْ تُدْخِلَهَا بَيْتَهَا.[2].

قَالَ الرَّازى: وقوله: ﴿ أَن تَبَرُّوهُمْ ﴾ بَدَلاً مِنْ ﴿ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ ﴾ وكذلك ﴿ أَن تَوَلَّوْهُمْ ﴾ بَدَلاً مِنْ ﴿ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾، والمعنى: لا ينهاكم عَنْ مَبَرَّةِ هؤلاء، وإنما ينهاكم عن تَوَلِّى هؤلاء، وهذا رحمة لهم؛ لشدتهم فى العداوة، وهذه الآية تَدُلُّ على جواز الْبِرِّ بين المشركين والمسلمين، وإن كانت الموالاةُ منقطعةٌ[3].

(١) المصدر السابق: (٤/ ٤٢٧)، والحديث أخرجه البخارى (٣٠١٢)، (٥٦٣٤)، ومسلم (١٠٠٣)، وأحمد (٢٦٣٧٤) و(٢٦٣٧٥) و(٢٦٤٠٠) و(٢٦٤٥٤)، وعبدالرزاق (٩٩٣٢)، والطبرانى فى (الكبير) (٢٠٣) و (٣٤٢) من حديث أسماء بنت أبى بكر -رضي الله عنها-.

(٢) أخرجه أحمد (١٥٦٧٩)، والحاكم (٣٨٠٤) من حديث عبدالله بن الزبير، وقال: الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) محاسن التأويل للقاسمى: (٩/ ١٠١)، والسياق: تفسير الرازى: (٢٩/ ٣٠٥).